

ضريح عمرو بن الجحج

مجموعة قصصية

دارك

حسن الجندي



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

ضريح
عمرو بن الجح

info@darak-eg.com



02 24832669-010 27251915



51 ب شارع الزمة - من امتداد رمسيس - القاهرة



جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناسخ.



خبرج عمرو بن الجن

حصن الجندى

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي- تدقيق داخلي:

www.sakoon.com



رقم الإيداع: 2017/25736

الترقيم الدولي: 978-977-6634-04-5

الطبعة الأولى: 2018

ضريح عمرو بن الجح

مجموعة قصصية

حسن الجندي

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء:

إلى من دفن في هذا الصريح .. لكم أتمنى أن تكون مجرد خيال ..

المستشفى

ذلك المستشفى لا يتذكر ساكنو «حلوان» متى تم بناؤه، هذا إن جاز أن أطلق عليه لفظ «مستشفى»، فما هو إلا مستوصف صغير يتكون من ثلاثة طوابق صغيرة الحجم، ظهر فجأة في ذلك الشارع الهادئ الصغير منذ سنوات قليلة، حتى تعود السائرون في الشارع على وجوده، كأنه بُني منذ فجر التاريخ.

عليه لفظه صغيرة تحمل اسم «مستشفى الصفا»، وهو اسم منتشر بين المستشفيات ومعال البقالة والأجهزة الكهربائية وورش التصليح. باختصار، اسم «الصفا» يصلح لكل النشاطات، لذلك لا يتذكر أهل «حلوان» هذا الاسم ويطلقون عليه اسم «مستوصف دكتور طارق»، نسبة إلى «طارق» صاحب المستشفى، هذا الطبيب الشاب الذي ظهر فجأة كما ظهر المستشفى، هذا أن نجاحه فاق كل التخييلات. فبرغم أن تخصصه الطبي هو الجراحة العامة إلا أن أهل «حلوان» يعاملونه على أنه يحتوي على جميع أقسام الطب البشري؛ هل تشتكي من الزائدة النودية؟ دكتور «طارق» جاهز للجراحة في التواليد والنحطة، هل تعاني مشاكل في النظر؟ اذهب لدكتور «طارق» فإنه خبير العيون الأول بمصر، هل يغالجت شعور بالاكئاب ورغبة في الانتحار؟ إذن فدكتور «طارق» خير من يسمعك ويرشدك للصواب. الجميع يحبونه ويشكرون في أخلاقه وتدينه

وذكائه، حتى ولو لم يتجح في علاج أحد المرضى، فابتسامته وصوته الهادئ وطمأننته الدائمة لكفي وتفيض ليتقاتل عليه المرضى كل ليلة من كل أنحاء «علوان» ليدخلوا غرفة الكشف الخامسة بالجراحة العامة في مستشفاه ويتعدوا عن بقية الأطباء الآخرين بمخصصاتهم المختلفة.

فإذا دخلت المستشفى ستجد أن الطابق الأرضي (الأول) ما هو إلا غرفتين، إحداهما للطوارئ والأخرى للأشعة. الطابق الثاني يتكون من ممر طويل يمتد بالغرفة الصغيرة التي من المفترض أنها تحتوي على أقسام طبية مختلفة يجلس داخلها أطباء يدخنون أو يقزقزون اللب، منتظرين أن يَمُنَّ عليهم أحد المرضى بالدخول، بينما يتجمع المرضى بالعشرات أمام غرفة الجراحة العامة ليقابلوا «طارق» الذي يأتي كل يوم بعد الخامسة وينتهي من كشوف المرضى عند منتصف الليل، ليصعد مع بضعة ممرضات إلى الطابق الثالث كي يطمئن على المرضى المقيمين بعد العمليات الجراحية.

ألم أقل لك؟ الطابق الثالث مخصص للعمليات الجراحية ولإقامة المرضى بعد تلك العمليات، لا تتوقع أن ترى طابقاً يمتلئ بالأطباء المهرولين لغرفة العمليات بأيادٍ ترتفع لأعلى، محاطة بالقفاز الطبي والمرضات يتبعنهم لينقذوا حياة مريض جاء منذ لحظات في حادثة مفاجئة، الوضع أبعد ما يكون عن المسلسلات الطبية الأمريكية.

فالطابق يتكون من باب يخلق نيلاً يعزل الطابق عن بقية الطوابق الأخرى، ثم صالة مهملة وحمام صغير ومطبخ متهاك يطل

على ممر. وعلى يمين الممر غرفة واحدة للعمليات وغرفتان لإقامة المريض. وعلى يسار الممر غرفة واحدة لإقامة الممرضة المناوبة ليلاً. في نهاية الممر نافذة مغلقة دائماً في هذا الوقت من الشتاء القارس تطل على الشارع الهادئ. أما غرفة الجراحة فهي مجهزة لتوحيات محددة من العمليات، فلا تندش إن سمعت صراخ امرأة تلهو، أو رجل عجوز يصرخ في أقاربه بأنه لا يريد إجراء عملية البواسير الآن، أو فتاة تبكي وأُمها تطالبها بالتماسك وهي تعير مترددة للعمليات لتجري جراحة غفروف بسيطة.

لكن لا أحد أن تشاهد عمليات معقدة في المخ أو الأعصاب أو القلب، فبرغم أن «طارق» يستعين ببعض الأطباء من خارج المستشفى لإجراء بعض الجراحات ويتولى هو الباقي، إلا أن غرفة العمليات غير مجهزة لكل شيء، ذلك من أنه لا توجد غرفة إنعاش حقيقية للحالات الخطرة، إلا إذا اعتبرت تلك الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة العمليات - والتي تستخدم لإفاقة المريض - غرفة إنعاش.

أما غرفتا إقامة المريض فلا يحتويان إلا على فراشين صغيرين وأنبوبة أكسجين ودولاب وكومود صغير. وبالنسبة لأجهزة القياس الطبية فقد حشرت جميعاً بغرفة المناوبة الليلية للممرضة كي يستعين بها «طارق» عند مروره على المريض يومياً، وتعيدها للممرضة لغرفتها الصغيرة.

وهناك سر لهذا التصميم الغريب للثلاثة طوابق، فبساطة هذا المستشفى كان في الأصل بيتاً قديماً من ثلاثة طوابق ورثه

«طارق» من عمه، مع بضعة تفاهات مع البنك وبضعة ضمانات استطاع هذا الأخير أن يحصل على قرض جيد لتحويله لمستشفى بعد التراخيص، وإن كان يجب عليك أن تتدهش من حصوله على التراخيص بتلك السهولة، فهو لم يفعل الكثير سوى أن هدم بضعة حوائط وبني أخرى ليحول شقق المنزل إلى تصميمها العالي، حتى أن مواسير الغاز ظلت على حالها تتصل بجميع غرف المستشفى، وجميع طوابقه لم تطلها يد التغيير سوى دهانها باللون الأبيض كبقية المستشفى، والمطابخ والعمارات بقيت على حالها بكل طابق بعد الاستغناء عن بعضها. باختصار، أنت في مكان ما بين المستشفى والشقة، لكن بعد كل هذا ما زال المرضى يتوافدون بأعدادهم الفخيرة غير عابئين بقلّة الموارد أو الشروع في بعض الحوائط. المهم هو دكتور «طارق» نفسه وليذهب المستشفى للجحيم.



الليلة باردة في الطابق الثالث ورذاذ المطر يصطدم كل ثانية بتوافذ الطابق المعلقة ليعطي صوتًا محببًا للبعض ومزعجًا للقليل من الناس. هذه البرودة متوقعة في شهر يناير من كل عام برغم أنها لا تستمر كثيرًا بسبب جو «حلو» الدافئ. أما المطر فقد كان غزيرًا بحسب ما في تلك الليلة والفجر يقترب مؤذنا بيوم جديد على ذلك المستشفى.

انفتح باب الغرفة الواقعة عند نهاية الممر ليخرج منها «مجدى» المراهق ذو الستة عشر عامًا، يرتدي ثوب المستشفى المفتوح من

الخلع. نظر في الممر الخالي بإضافته الضعيفة الأكية من مصباح
متواك معلق في السقف. سجل بضع مرات حتى كادت حافظة
النفوذ التي يقبض عليها بيده اليمنى تسقط منه، لكنه تشبث بها
بقوة وهو يطلق الباب من خلفه.

شعر ببرودة في رأسه فرفع يده الحرة يهررها على شعره البني
ليدرك أن شعر رأسه واقف كشعر الرسوم الكرتونية عندما تصعق
بالكهرباء، برغم أنه في ذلك الحين أقرب بالفعل للخصيات
الكاريكاتيرية، إلا أن «مجندي» يمتلك وجهًا وسيما يحسده عليه
أصدقاؤه؛ حين زرقاء وملامح دقيقة ببشرة بيضاء كأنها لم تر
الشمس قط، لكن جسده القصير قليلاً هو ما جعله يسير بحرج
دائمًا، يتلفت حوله لا إرادياً، متوقفاً أن يصغر منه المارة، هذا هو
السبب الذي تضغم في عقله ليمتعه من ممارسة حياته الطبيعية
كبقية أقرانه.

هناحه بعض زملاء دراسته بنعته بالقصير، وهم لا يعلمون أن
تلك هي نقطة ضعفه الوحيدة التي تؤلمه، ولا يمتلك أمامهم سوى
الانحسار وإطلاق الضمكات العصبية التي لا معنى لها، كي يداري
شعوره الداخلي الحارق.

سار ببطء ليلاً قنميه، هذه هي المرة الأولى التي يسير فيها
دون مساعدة بعد إجرائه جراحة بسيطة في ظهره لتقويم الفقرات
منذ عشرة أيام. طلب منه دكتور «طارق» أول أمس أن يسير قليلاً
في الممر بدلاً من الذهاب للحمام بمساعدة والده نهائراً لكنه تكاسل.

الليلة شعر بأهمية السر وحيثًا لسبب لا يدريه، أو ربما ليفكر قليلاً في مأساته الثانية بعد قصره.

فتح حافظة نقوده وظهره يستند لحائط الممر، ثم أخرج منها بضع صور شخصية لفتاة في نفس عمره تبسم وهي تزرر يدها بين خصلات شعرها المصبوغ والغمز بإحدى عينيها.

الفتح باب غرفة المريض الثانية وأخرج منها رجل عجوز أشيب الشعر يمسك بيده سيجارة طير مفتعلة وهو ينظر حوله، حتى وقعت عينه على «مجهدي» الذي ارتبك ووقعت الصور والحافظة من يده على الأرض، فحاول أن يلتقطها لكنه تألم من ظهره.

قطع العجوز بخطوتين المسافة بينه وبين «مجهدي» وجثا على الأرض يلتقط الصور والحافظة الجلدية وهو يقول مبتسماً:

- لا تثن ظهرك فتضر بالعملية، أنت أنت المريض المقيم في تلك الغرفة؟

ناوله العجوز الحافظة ونظر بعطف عينيّه لغرفة «مجهدي» الذي هز رأسه إيجاباً وهو يخلق جلباب المستشفى من الخلف لا إرادياً. كاد العجوز يناول الصور إلا أنه تفحصها بعينيّه قليلاً حتى قال:

- كائي رأيت تلك الفتاة من قبل! وجهها مألوف.

تلفس «مجهدي» بقلق والتصق بالحائط أكثر، فابتسم العجوز وهو يناول الصور ويقول:

- لا تخف، لست والديها ولا تحت لي بصلة قرابة، لكنني رأيتها من قبل. اسمي «حسن»، جراحة بواسير.

أخذ منه الصور وتنفس الصعداء وهو يقول:

- هل هناك تخصص طبي لجراحة البواسير؟

- أنا المريض المقيم في الغرفة المجاورة لك، أجريت عملية البواسير منذ ثلاثة أيام.

أنهى عبارته ومد يده التي تحمل السيجارة ليصافح «مجدي» الذي قال:

- أنا «مجدي»، قمت بجراحة بسيطة في الفترات.

هز الاثنان رأسيهما بابتسامة بعدما انتهت المصافحة ثم نظر «مجدي» حوله كأنه يتأمل الممر الذي يقفان فيه. في الواقع لم يتعود هذا الأخير على فتح حوارات مع الغرباء، ناهيك عن عدم قدرته على تكملة أي حوار مع معارفه. حاول أن يلتقط بطرف عينيه تفاصيل هذا العجوز ذي العين البارزة والبيجامة المخططة بالطول والملاصق التي تغطي بخطيه الستين بقايل. وضع «حسن» السيجارة في فمه ولم يشعلها فقال «مجدي» معرّجاً:

- اعتقد أن التدخين ممنوع في المستشفيات.

لندم بعدما قال عبارته، قائلاً في نفسه إن هذه ليست الطريقة المثلى لفتح حوار. لكن «حسن» ابتسم بطريقة أبوية وقال وهو يبعد السيجارة من فمه:

- أنا لا أدخن فقد أقلعت منذ شهر تقريبًا، أحمل فقط تلك
السيجارة ولا أفعلها.

- وما فائدتها؟

- لا أعرف، رأيته في مسلسل لحسين فهمي فأصجبتني. الحقيقة
أنني أقلعت عن التدخين بسهولة ولا أشتاق له الآن، لكن حمل
تلك السيجارة يشعرني بالتميز أمام الجميع.

سمع «مجدي» صوت شخص يان بصوت خافت لكنه فشل في
تحديد اتجاه الصوت. حرك رأسه لا إراديًا في كل الاتجاهات ليلتقط
الصوت الذي اختفى.

- هل سمعت هذا الصوت؟

قالها «مجدي» منصفًا، لكن «حسن» رد عليه بسرعة كأنها ينتظر
هذا السؤال.

- لا تنسى أننا في مستشفى، هل توقعت سماع أصوات موسيقى؟

- لكننا قرب الفجر والصوت يأتي من هذا الطابق.

- بمناسبة الفجر.. هل توفيات لنصلي الفجر؟

قال «حسن» مباركة وهو يتنسم، بينما تسمر «مجدي» للحظة
قبل أن يقول:

- أنا مسيحي.

ضعك «حسن» بصوت مجادل وهو يشير لإحدى يدي «مجدي»
ويقول:

- لاحظت الصليب منذ البداية. لا تخلق، أنا أمارحك لأخرجك من حالة القلق التي تغرق نفسك فيها.

ابتسم «مجدي» لا إرادياً، وفجأة بالراحة يغزو خلايا جسده بعد ضحكات «حسن». أخبر نفسه بأن هذا العجز استطاع أن يكسر قلقه ويشعره بالاطمئنان بعد تبادل حديث لم يتخط دقيقة واحدة.

فجأة عاد صوت الأنين، لكن هذه المرة كان أعلى قليلاً وأقصر من المرة السابقة، تبعه صوت حشرة يأتي من حجرة منهكة. استطاع «مجدي» هذه المرة أن يحدد مصدر الصوت، فقد كان يأتي من ناحية الباب الذي يفتح الطابق ويفضي إلى السلم.

- التصوير الفوتوغرافي اختلف هذه الأيام.

قال «حسن» تلك العبارة فالتبته له «مجدي» بوجه متسائل من معنى هذا السؤال. أشار «حسن» إلى الصور الشخصية الصغيرة التي ما زال يقبض عليها «مجدي» وقال:

- صور هذه الفتاة غريبة، هل أصبحت إستوديوهات التصوير تعتمد على نظام السيلفي؟

- سيلفي؟

- أنا عجوز يا بني لكني ما زلت أعرف القليل عن جيلكم.

رفع «مجدي» الصور لأعلى ينظر فيها الفتاة في الصور الفوتوغرافية بالفعل تستخدم هاتفها المحمول أو كاميرا في تصوير نفسها بيدها اليمنى في أغلب الصور. ابتسم «مجدي» بهرج وقال:

- لا أعلم ما السبب الذي يجبرني على إخبارك بالحقيقة لكنني سأقول كل شيء.

تنفس «مجددي» بصوت مسموع، وعيناه لم ترجعا الصور، وأكمل حديثه بصوت أكثر عمقا:

- منذ عام ذهبت لإستوديو تصوير بشارع منصور، وأنا أحمل على هاتفي صور هذه الفتاة. طلبت منهم طبعها في حجم صغير كي يمكنني حملها معي بحافظة نقودي لأي مكان يمكنك أن تتخيل نظرات الشك التي رمقني بها صاحب الإستوديو، حتى أنني أخبرتته بأنها صور شقيقتي الصغرى، وتصريحي هذا ما أكد له شكوكه أنني أكذب. لكنهم طبعوا الصور ومن هذا الوقت لم يرها أحد سواي.

- ما اسمها؟

- «ماري».

- اسم جميل.. منتشر بين مسيحيي مصر.

رفع «مجددي» عينيه من على الصور ونظر لحسن قائلاً:

- ليس في انتشار اسم «محمد» بين المسلمين.

- كلامك صحيح، جميلة «ماري»، هل تحبها؟

عاد «مجددي» لينظر إلى الصور ويقول:

- أعشقها منذ وعيت على الدنيا، فهي تسكن بالعصارة المجاورة لي، أراها في كنيسة ومدرستي وشارعي. كل ليلة منذ طفولتي لا أنام قبل أن أهيم في خيالات تخصها أحلام ملتصقة باللقاءات الرومانسية

والله... رسول العالم، حتى أنني أحميها من الأشرار في خيالاتي فلا
يقدر أي كلب أن يقترب منها قبل أن يتلقى علقة موت مني. فأنا
مقاتل محترف بغيالي لا يجربو أي شخص على العبث معي.

- هل تبادل لك كل هذا الحب؟

لم يرفع «مجدي» عينيه عن الصور وهو يقول بإبتسامة مريرة:
- هي ملكي في أحلامي، أما في الواقع فأحلول حوار خضته معها كان
للسؤال عن صحتها أو عن موعد الصلاة في الكنيسة. كيف سأعترف
لها بحبي وأنا غير قادر على تثبيت عيني في عينها لثانية واحدة؟
طوال السنوات السابقة أراقبها في صمت بكل مكان نلتقي فيه، وإن
جاءت الصدفة ونظرت هي لي أبعد عيني عنها بسرعة البرق، حتى
أصبحت خبيثاً في التظاهر أمامها بأنني لا أهتم بها. لكم لميت أن
تعرف مرفي وتزورني في المستشفى، أصدقاءنا المشتركون في المدرسة
يعلمون بالعملية الجراحية وربما أخبروهذا لكنها لم تكن لتهم بـ...
قطع «مجدي» عبارته ولامحه لتفكير من الإبتسامة الممتزجة
بألم إلى ملامح الدهشة وهو يقول:

- هذه أول مرة أبوح فيها بما يدور في نفسي لأحد، لم أحدث
نفسى حتى بصوت عالٍ.. ما الذي تغير في؟
ألهى عبارته ونظر لحسن فوجد ملامح هذا الأخير متأثرة بشكل
كبير بكلماته، حتى أنه لاحظ أن عينيه تلمعان بدموع مسجونة
فيهما، وكأنه يقاوم كي لا يعطيها الحرية.

- أرى أن كلامي قد أثر فيك.

ابتسم «حسن» فهربت دموعه من عينيه مسحها بيده وهو يقول:

- لو كنت في سن والدك لأخبرتكم أن تعرف هذه التفاهات وتلتفت لمدرستك والمستقبل، لكن بما أنني في سن جدك فكان علي إخبارك بأن تعرف لها بعبك، فلا وقت لتضيعه دونها. لكم أهني الآن لو كانت نصيحتي ذات فائدة.

- لا فائدة.. إن اعترفت لها سترفضني بأدب، ما الذي سيجذبها لفخص تافه مثلي؟ بالإضافة إلى أن والدي لو علم بذلك لذهبني في الحال وأخذ يشكو بعدها من ولده العييط الذي خيب أمه.

لا يعرف «مجددي» السبب الذي دفعه للنظر للنافذة عند نهاية الأمر لكنه فعل. حُيِّل إليه أنه يرى شيئاً ما وسط رذاذ المطر، شيء خلف النافذة في حجم وجه الإنسان، سمع صوت «حسن» يقول:

- بمناسبة والدك.. لا أرى أحد من أهلِكَ يقيم معك في الغرفة ليلاً؟

لم يبعد عنيه عن النافذة وهو يجيب:

- والدي يعمل في مطبعة ليلاً، لكنه يأتيني من طلوع الشمس حتى غروبها.

تحرك «مجددي» بخطوات ثقيلة ناحية النافذة ليتبين هذا الشيء من خلف زجاج النافذة، و«حسن» يقول من خلفه:

- ووالدتك؟

- مانت منذ خمس سنوات.

قالها «مجدي» وقد اقترب من النافذة أكثر، ولامح هذا الشيء
تضبح أكثر وضوحًا. وجه شفاف لامرأة وسط رذاذ المطر تنظر من
خلف النافذة لـ«مجدي» وتبتسم. توقفت «مجدي» فجأة وفكته
السفلي يسقط لا إراديًا، وعيناه تجمعتان. رفع يده يشير للوجه
ويقول بصعوبة:

- أمي!!

شعر بيد توضع على كتفه، فنظر لحسن الذي رُئت على كتفه
وهو يقول بحزن:
- رحمها الله.

ظلت يد «مجدي» مرفوعة باتجاه النافذة وهو يتبادل النظر
بين «حسن وبين وجه أمه ويقول:
- هل ترى ما أراه؟ هذه هي أمي.. أمي.
- أهدأ يا «مجدي»، لا تفزع هكذا.

اختفى الوجه وسط المطر ويد «مجدي» ترتعش وهو ينزلها،
ويتأمل شخصًا يأتي من خلف «حسن». عند نهاية الطابق ظلام
تام بسبب مصباح السقف المغلق عند باب الطابق، من وسط هذا
الظلام أنت فتاة في العشرين من عمرها لغطي شعرها بحجاب غير
ملفوف حول رأسها، كأنها فكته لتوها. عندما دخلت الفتاة الممر

تعرف عليها «مجدي»، فهي «صفاء» ممرضة المناوبة الليلة في هذا الطابق. نظر لها «حسن» بعزن وهي تسير ناحيتيهما وفي عينيها تتكاثر العبرات ويدها ترتجف. قال «مجدي» بعروف مرتجلة:

- ما بك يا «صفاء»؟

توقفت «صفاء» ونظرت لحسن ثم قالت:

- ألم يفهم بعد؟

أرغى «حسن» قسبات وجهه وهو ينظر للأرض، و«مجدي» همسك بكتفه ويقول:

- ما الذي لم أفهمه بعد؟ هل حدث شيء؟

قطع «مجدي» عبارته والكهرباء تقطع فجأة عن الطابق وأصوات كثيرة تأتي من نهاية الطابق عند الباب، ميز منها صوتًا يصرخ قائلاً:

- بمجرد دخولنا افتحوا النوافذ ببطء وتنفسوا منها قدر ما استطعتم.

سمع «مجدي» صوت باب الطابق يفتح ببطء وشخص يحمل كشاف إضاءة يدخل وهو يحرك الكشاف هينًا ويسأله حتى اصطدمت قدماه بشيء. وجه الكشاف ناحية الأرض فوجدتها حثة متكومة لفتاة تغطي رأسها بحجاب مفتوح. لم يكن حامل الكشاف إلا «طارق» نفسه الذي جثا على ركبتيه وخلفه يدخل

أربعة آخرين يعملون كمسافات إضاءة أخرى، أما البجعة الراقدة على الأرض فكانت له «صفاء».

ولفتت حافظة النقود من يد «مجمدي» وهو ينظر لبجعة «صفاء» التي يحاول «طارق» إسعافها بلا جدوى، و«صفاء» الواقفة أمامه في الممر والتي هطلت الدموع من عينيها وهي تقول:

- حاولت فتح الباب لكنني فشلت.

- أنت من كنت أسمع أيتها منذ قليل؟

قالت «مجمدي» خير مصدق فردت هي:

- لم أكن قد مت بعد.

بدأ أن «طارق» فشل في إسعاف بجعة «صفاء» فأراحها أرضاً وهو يضع ثم قميصه على أنفه، ويدخل الممر حاملاً الكشاف، والبقية يتبعونه وهو يقول:

- انفضوا النافذة ببطء كما أخبرتكم.

جسرى الثمان في الممر وهما هيران بجانب «حسن» و«صفاء» و«مجمدي» دون أن يلاحظوهم، و«طارق» يفتح غرفة «حسن» ويدخلها، سار «مجمدي» مشدوهاً حتى وصل لباب الغرفة المفتوح وهو يشاهد «حسن» راقدًا على الفراش ميتًا، و«طارق» يفحصه. نظر «مجمدي» لحسن الواقف في الممر وقال وهو يرتعش:

- نحن أموات.

رد عليه «حسن» بنبرات حزينة:

- كنت أحاول تهيتك قبل وصول النجدة.

- وكيف متنا؟

- مواسير الغاز الطبيعي القديمة المعلقة في غرفنا بدأت بالتسريب ونحن نيام.

خرج «طارق» من الغرفة وسار في الممر لكنه توقف عند حافظة النقود التي سقطت من يد «مجدي» ونظر لها لشوان، قبل أن يكمل سيره ويفتح غرفة «مجدي» ويقيية حاملي الكشافات يتبعونه.

خطا «مجدي» بتناقل حتى وصل لباب غرفته وهو يقول شاردًا:

- لهذا رأيت أمي تنظر لي مبتسمة من خلف الزجاج؛ لأنني ذهبت لعالمها.

وقف ونظر داخل غرفته وهو يرى جثته ترقد على الفراش، و«طارق» يضع الكشاف جانبًا محاولًا إسعاف «مجدي» وهو يصرخ في من معه أن يفتحوا نافذة الغرفة التي تطل على الشارع. توقف «طارق» وهو يعلن موت الجميع بأن معه وهم ينطقون الشهادة بحزن. جلس «طارق» على طرف الفراش وهو يصرخ فيمن معه بأنهم كان عليهم دخول الطابق فور اشتداد رائحة الغاز لا أن يبلغوه بأن يأتي فقط للمستشفى.

ما زال «مجدي» ينظر للعوار الدائر في غرفته وهو يلقي نظرة على جثته على الفراش ويقول:

- لكنني لم أحقق خيالاتي وأحلامي!

جاءه صوت «حسن» من خلفه يقول:

- آسف يا بني.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..

نظر «مجددي» للأرض وهو يقول:

- حتى لو كنت حيًا.. لم أكن سأحقق أحلامي.

مرت لحظات وهو يشاهد «طارق» يرتكن برأسه على كفيه،

حتى سمع «حسن» يقول:

- تذكرت أين رأيت تلك الفتاة التي في الصور.. «ماري».

نظر له «مجددي» فأكمل «حسن»:

- منذ خضوعك للعملية الجراحية من أيام وأنا أقف عند

نافذة الممر من الصباح، كل يوم أرى تلك الفتاة تأتي وحيدة لتقف

بجانب المستشفى بعد الساعة الثالثة عصرًا بملابس المدرسة، تنظر

لنافذة غرفتك لساعتين، تبكي في بعض الأحيان، وإذا فتحت نافذة

غرفتك وتهفت ابتسمت.

نظر «مجددي» لحسن وهيناه تسعان، فأكمل هذا الأخير:

- وفي الساعة السابعة تعود بملابس أخرى لتقف ساعتين في

نفس المكان. يبدو أنك كنت غيبًا في حياتك يا بني، الفتاة تحبك

وتتظره.

نظر «مجددي» بحسرة لنافذة الممر المفتوحة والتي تدخل منها

بعض زخات المطر، ثم نظر لجنبه داخل الغرفة وأغمض عيديه حزينا.



فتح «مجدي» عينيه بصعوبة شامراً بألم في صدره وإحساس
بالقيء يحتل معدته. وجد نفسه على فراشه بالمستشفى و«طارق»
يجلس بجانبه، وحوله بضعة رجال يحملون الكشافات. صرخ
الجميع مكبرين وهم يشاهدون «مجدي» يستيقظ بعدما اعتقد
الجميع موته. نهض «طارق» مفزوعاً وهو يفحص «مجدي» الذي
قال بصوت متعثر وهو يشير خارج الغرفة:

- حافظة نقودي بالخارج وبجانبها بضع صور، أحضروها.

جرى أحد الواقفين ليغيب بضع ثوانٍ في الممر ثم يعود للغرفة
حاملًا الحافظة والصور. نظر «طارق» لـ«مجدي» قائلاً:

- كيف وصلت حافظتك للخارج؟

كان «مجدي» يحتاج للتأكد أنه لم يكن يعلم. لم يجب عن
سؤال «طارق»، لكنه ابتسم براحة وهو يريح رأسه على الوسادة
ويفكر في مستقبله مع «ماري».

تمت

خالتي لا تحكتب قصص الرعب

التهيت من تناول الغذاء مع خالتي وأبنائها. وشعور عام
بالرضا يغزو خلايا مخي. من هذا الذي لا يشعر بالرضا بعد تناول
معشي الكرنب واللحم!! معشي الكرنب يصمو بروحك ليساعدك
على إدراك ذاك مرة أخرى. بعد أكله تصاب بصمت حكيم يعملك
على تأمل الموجودات في شقة خالتي بنظرة أكثر روحانية، فتساءل
لأول مرة: هل تلك الكنية الإسطنبولي كانت موجودة منذ أيام؟ أم
سنوات؟ أم هي قديمة أزلية ظهرت قبل كل شيء؟

النتيجة القديمة التي لا تحمل أوراقا، والمعلقة على الحائط،
تلاحظ لأول مرة أنها تحمل تاريخ عام «1979»! نتيجة حائط معلقة
منذ 37 عامًا، ولم ألاحظها إلا بعد معشي الكرنب! الكلمات المكتوبة
على الحائط المواجهة لي بقلم جاف، والتي كتبها المعنوه ابن خالتي
في طفولته على الأظرب بخط منمق. تقول الكلمات «برة.. والبي
برة مين؟ دا احنا معلمين. لما الباب يغبط نعرف برة مين».

ابن خالتي يتحدث عن الاستبصار والقوى الطارقة على الأرجح.
أعتقد أنه كتبها بعد أكله معشي أثرت في وعيه فدفعته لكتابة
هذه التدوينة وهو مسح المخطاط الذي يصل من أنه، ليروي
للأجيال التي تليه عبارة إبداعه اللطيف.

جاء هاتف من المطبخ يقول:

- «حد هاز شاي؟»

إنها خالتي التي ما زالت تسأل هذا السؤال منذ يوم مولدي
بعد كل شواء. لم يجهز أحدها فأنا وابن خالتي نسرح في عالم
التأملات، وبنات خالتي تجلس كل واحدة منهن نصف نائمة. أما
زوج خالتي فقد أل شغفه منذ ذلك طويلًا. وكل مرة جاءت
خالتي من المطبخ تعمل صينية بها أكواب الشاي على عددنا برقم
أنا لم نطلبه ولا مرة. أعطت كل واحد منا كوبه وأيقظت زوجها
الذي يتم بكلمات سحرية غير مفهومة وأجدها في جلسته ممسكًا
بالكوب ثم نام مرة أخرى وهو يريح كوب الشاي على كفه.

أما أنا فارتفعت من الشاي القليل، بعدها بثوان شعرت
باحياجني لتلكاء من فرط الرضا الذي غمر روحي في تلك اللحظة.
شاي بعد معني الكرب هو السعادة التي بحث عنها الفلاسفة.

- «خالتي؟»

قلتها وأنا أحرق رشفة الشاي الثانية بفمي لأستمتع بها قبل
بلعها.

- «نعم يا روح خالتي».

- «فكرة لما كنتي بهكياتنا زمان من أبو رجل مسلوخة
والفولة؟».

ابتسمت خالتي بطرف شفتيها وهي تتذكر. أنا أيضًا أتذكر حينًا
تلك الليالي التي دأبت فيها على جمع كل أطفال العائلة .

أمامها على مقاعد الصالون المذهب في منزل جدي، تحكي لنا عن العفاريت والجان. عند بداية إدراكي للموجودات كانت تهلك قصصاً لا تنتهي عن كل ما يرهب الأطفال والكبار على ما أعتقد. بعد ما كبرت قليلاً استطعت أن أدرك أنها استخدمت قصصها المرعبة لي تحذرننا من بضعة أشياء لنحشّن من سلوكنا الطفولي، أي أنها قصص تربوية مغلفة بإطار من الخوف والترقب لتصل لنا رسائل بسيطة. تحكي لنا عن الغولة التي تتشكل في صورة امرأة قبيحة تخطف الفتى الأهطل الذي يلعب في جوال الدقيق على سطح منزله. ثم تتبع خالتي قصتها بنظرة مخيفة لابنها الأهطل الذي تتسع عيناه خوفاً وهو يتذكر أنه قفز داخل جوال الدقيق أمس ولجأ به لساعات حتى غلبه النوم، ليبعث عنه الجميع بلا جدوى حتى ظهر مرة أخرى واللون الأبيض يغطيه، حتى أن خالتي وهي تضربه كان يطير الدقيق من عليه ليصنع سحابة تعمي العيون، عندما تختفي السحابة نجد أنها تضرب طفلاً آخر غير الأهطل.

وهناك حكاية أخرى عن «الشمامة» التي لم تكن نعتير اسمها سبباً تدل على إدمان الكوكايين، لكن اسمها هذا دب الرعب في قلوبنا، فهي تأتي لمن ينام بلا أن يغسل يديه وقدميه وأسنانه ورأسه وقفاه وكل شيء، حتى أنها تأتي في بعض الأحيان لمن لم يغسل الفم.

كانت خبيرة في قصص الرعب حتى كبر الأطفال وملأوا من الحكايات وتناست هي قدرتها على السرد، الجميع تناسوا إلا أنا.

تحولت مع الوقت لهاوٍ يحب كتابة قصص الرعب ونشرها، سنوات طويلة أكتب الرعب ولم أفكر في إعادة سماع أي قصة من قصص خالتي، أفتقد متعة الجلوس أمامها مترقبًا صوتها الجاد وتعبيرات وجهها الذي يجسد ما ترويّه.

- «ما تحكي لنا يا خالتي عن قصة تخوف زي زمان، وكلنا هانسمعها».

قلتها مبتسمًا والإثارة تقطنني. نظر لي ابن خالتي الأهمل بطرف عينيه بقرف، بينما خالتي تقول:

- «يا ابنتي دي كانت قصص بالفها عليكوا وأنا بحكيها، مش فاكدة منها حاجة».

- «ولا أي حاجة؟».

- «مش فاكدة اللي كنت بحكيه، لكن فاكدة اللي محكهوش لسه».

- «نعم؟! هو انتي محكيش إيه؟».

- «القصص الحقيقية اللي حصلت لي».

- «الصلاة على النبي.. احكي يا خالية».

قلتها بفرحة وكوب الشاي يرتعش بيدي فتطايرت منه قطرة على ملابسني. مرخت «سلوى» ابنة خالتي قائلة:

- «معدش يحكي حاجة تخوف».

تبعتها الأهمل قائلاً:

- «خشوا في الصالون ولأ في أي حنة بعيد من هنا».

نظرت لخالتي متسائلاً، فقالت:

- «تحب تسمع حاجة حليقية؟».

- «آه».

- «طب اسبقني على الصالون وأنا ها حصلك».

رشت الشاي الساخن بسرعة كالمجنون وجريت على الصالون،
بينما خالتي ذهبت لغرفة النوم وأنا أسمع أصوات دولاب الملابس
وهي تعبت به.

جلست على أحد المقاعد متأهبا حتى أتت خالتي بعد دقائق
تحمل كيسا بلاستيكيًا أسود اللون، وضعت به جانبها وهي تجلس على
الأريكة المواجهة لي وتنظر إلى الأرض مفكرة، لم تنظر لي وتعبيرات
وجهها تتغير كأنها تحن لشيء قديم. ابتسمت بطرف فمها وقالت:
- «الحكاية بدأت سنة 79 لما خلفت ميادة».



ملحوظة: سأروي الجزء الذي روتته لي خالتي بأسلوب.

بعد ولادة «ميادة» بأيام، أصيبت بمرض «الصفراء» كما نطلق
عليه في لغتنا الشعبية، لا يهمنا هنا المصطلحات الطبية. نصحتها
بعض نساء العائلة اللواتي تخطين الثمانين، بالانتظار قليلا حتى
تختفي أعراض المرض تلقائيا بعد أيام. لكن الأعراض لم تختف من
تلقاء نفسها بل زادت، لذا لا وقت لسماع نصائح الحكماء العجائز

المخرفين الذين اعتادوا على قول «سأل مجرب ولا تسأل طبيبًا». على الأرجح هذا المثل قتل الملايين من الأطفال منذ القدم، لذلك عقدت خالتي عزمها على إقناع زوجها الذي لأن بعد فترة، لأنه كان من النوع المقتنع بأن الأطفال تُشفى من نفسها تلقائيًا فهذا شيء معروف له، أما مسائل الأطباء والمستشفيات فهي مجرد «دلع» حسب تعبيره في ذلك الوقت.

ذهبوا ليلاً لمستشفى «الساحل التعليمي» بشبرك وهناك قرر طبيب الاستقبال حجز «ميادة» لبضعة ليالٍ كي تتلق العلاج. سمح المستشفى لخالتي أن تبيت مع «ميادة» في جناح الأطفال. في تلك الفترة تكونت جناح الأطفال من بضعة غرف متجاورة في الطابق الثالث، كل غرفة بها بضعة أسرة متجاورة ولم يكن يتم التفريق بين عمر الأطفال الذين يتراصون على السرائر، من عمر شهور إلى عمر اثني عشر عامًا، لكن الغرفة التي وضعوا فيها «ميادة» كانت أسرتها غالية من الأطفال، لذلك جلست خالتي بجانب الفراش الذي استلقت عليه «ميادة» وهي تنظر للغرفة الخالية من المرضى بقلق، لقد غادر زوجها من قليل بسبب عمله الذي يبدأ قبل منتصف الليل بقليل.

دخل طبيب صاحبه ممرضة فحص «ميادة»، وطلب من الممرضة سحب عينة دم منها ثم إعطائها دواء مرة كل ثمان ساعات. رحلت الممرضة خلفه وبعد قليل جاءت ممرضة أخرى سحبت عينة دماء و «ميادة» تصرخ باكية، بينما خالتي تحاول تهدئتها.

أعطتها الممرضة دواءً ثم رحلت وهي تغبر خالتي بأن طبيب
النبطشية الليلية سيمر على العنابر ليطمئن عليها. هادرت الممرضة
بعدها أغلقت مصابيح الغرفة ليأتي ضوء من الممر خارج الغرفة
بجانب ضوء القمر ليضيئنا الغرفة بشكل جيد مريح للعينين.

راحت «ميادة» في النوم بعد ساعة، فوضعتها خالتي في الفراش
وجلست على مقعد بجانب الفراش تكافح النوم حتى ظلمها
النعاس. لا تتذكر كم مر عليها وهي نائمة، لكنها استيقظت فجأة،
نظرت حولها للغرفة الخالية ثم لايتها النائمة، شعرت بالخوف بلا
سبب، كأن هناك شيئاً ما أنقظها.

ما هذه الرائحة؟ دخلت أنفها رائحة غريبة لم تتعرف عليها.
مرت بضع لحظات حتى تعرفت عليها، رائحة تقترب من رائحة
عود الثقاب بعد انطفاء شعلته، كأنها رائحة احتراق خشبي.

فجأة فتحت «ميادة» عينيها كأنها فزعنت، أخذت تحرك عينيها
يميناً ويساراً بسرعة غريبة. توقفت ميناها باتجاه باب الغرفة
المفتوح، نظرت خالتي هي الأخرى للباب مندهشة، لم تر شيئاً في
البداية، لكن بعد ثوان دخل من الباب رجل طويل يعمل بيده
اليمنى حقيبة جلدية صغيرة، لم تظهر ملامحه في البداية لأن الضوء
يأتي من خلفه، كان صوته رخيماً هادئاً وهو يلقي التحية على
خالتي التي ردت عليه بشك.

- «أنا الدكتور حسام نصر الله، دكتور النبطشية».

قالتا الرجل وهو يسير داخل الغرفة متجهًا إلى الفراش. لهفت خالتي من المقعد لتفصح له مجالًا ليقلب بجانب الفراش. لكنها لاحظت أن عين «ميادة» تتبعه ناحية الرجل وهو يسير. حدثنا عينيها تطبعانه بدقة. المفروض أن الأطفال في هذا العمر لا يرون أكثر من ستيمراته. كيف تلاحظه وتبعه بعينيها بهذه الطريقة؟ ملامح الرجل بدأت تتضح لكنها لم تكتمل بعد. رفع يديه كأنه يدلي الجزء الأيمن من وجهه. رائحة الشياط تتسلل لأنف خالتي أكثر مع القرب، لكنها تجاهلتها وهي ترى الرجل يجلس على المقعد ويفحص «ميادة» بطريقة غريبة، يحركها هيئًا ويسارًا ويقلبها وهو ينظر لها.

- «عالمها بنتك؟»

قالتا الرجل بصوته الهادئ، فردت خالتي بسرعة:

- «عندها الصغرا يا دكتور».

توقف الرجل عن فحص «ميادة»، وقال وهو ينظر للأرض:

- «بنتك كويسة، رُوحي بيها البيت وعرضيها للشمس شوية،

والصغرا هاتروح».

حاولت خالتي التدقيق في ملامحه أكثر، لكنه أشاح بجانب

وجهه الأيمن بعيدًا وهو يقول:

- «يلا خديها وامشي زي ما قلت لك».

- «امشي إزاي؟ دا الدكتور اللي شافها قبلك قال لازم تستنى».

صرخ الرجل ووجهه ما زال موجهًا ناحية الأرض:

- «يقول لك خديها وامشي.. التي مبتفهميش!».

- «أنت بتكلمني كذا ليه؟ ومداري وشك عني ليه؟».

نهض الرجل وهو ينظر بوجهه ناحية خالتي. رأت لحظتها جانب وجهه الأيمن، كان جلده متأكلاً، تبرز عظام جمجمته منه، وأسنانه تظهر بلا جلد فمه كأنه يبتسم. تراجعت هي للوراء وهي تصرخ بينما الرجل يقول:

- «لما أقول لك تمشي يبقى تنفذي اللي بقول عليه».

أكملت خالتي صراخها والرجل يأخذ حقيبته ويسير مبتعدًا حتى خرج من الغرفة. نهضت هي من على الأرض وحملت «ميادة» وهي تجري بها حتى خرجت من الغرفة، لتجد ممرضة تجري عليها من آخر الرواق بينما بعض أهالي الأطفال يخرجون من الغرف مساللين. صرخت خالتي في الممرضة تخبرها بأن رجلًا هربًا دخل الغرفة وأذى أنه طبيب. سمعت الممرضة على أنه لا أطباء يهرون الآن، وحاولت تهدئتها. خرجت امرأة أخرى من غرفة بعيدة تصرخ وهي تحمل طفلًا وتقول إن هناك رجلًا غادر غرفتها الآن، وجهه مليء بالعروق. خرج وراءها اثنان آخران يحملان طفلين وهما يؤكدان ما قالت. صرخت خالتي وهي تجري باتجاه السلم ويتبعها الجميع حاملين أطفالهم حتى غادروا المستشفى.

أخذت خالتي «تاكسي» حتى شقتها وهي ترتجف وتقرأ القرآن.

اتصلت بزوجها في عمله لتخبره أنها عادت لمنزلها. في اليوم التالي
حكيت لزوجها عما حدث فأخذ يكيل الشتائم لها ولجنونها ولخيالتها.



انتهت خالتي من الحكاية والذهول يرتسم على ملامحي.

- «هو الحكاية خلصت خلاص؟».

قلت العبارة السابقة فابتسمت خالتي وهي تقول:

- «آه خلاص خلصت».

- «بس الحكاية كأنها من غير نهاية».

نهضت خالتي وهي تقول:

- «ما هي الحكايات الحقيقية ملهاش نهاية ولا تفسير».

تبعث هباتها بأن أخذت الكيس الأسود الذي احتفظت به
بجانبها وأخرجت منه جريدة صفراء اللون. ألقته لي وهي تقول:

- «تالت يوم الحكاية دي.. جولي جاب الجرنال ده. اقرأ الخبر
للتعلم عليه ممكن تلاقي فيه نهاية للحكاية».

هذرت هي الغرفة وأنا أنامل الجريدة ذات الورق المهرق.
طبقت الجريدة على صفحة جزء من صفحة واحدة، فيه خبر صغير
ووضعت حوله دائرة بقلم حبر. قرأت عنوان الخبر الذي يقول:

«حريق هائل يقسم الأطفال بمستشفى الساحل التعليمي-
العناية الإلهية تنفذ جميع المرضى».

تحت العنوان كُتب:

«وقعت بالأول من أمس حادثة مفرجة داخل مستشفى الساحل التعليمي، ماس كهربائي صدر من لوحة الكهرباء بالطابق الثالث أشعل النار بقسم الأطفال، لكن عناية الله كانت حاضرة، فقبل اشتعال الحريق بنصف ساعة أذعت والددة أحد الأطفال رؤيتها رجل يتعامل صفة طبيب يسير بين غرف قسم الأطفال، وغادرت المستشفى وبقية أهالي الأطفال يتبعونها بعدما دبت فيهم «مخوف» بالليل، فلم يبق بالقسم أي مريض عندما اشتعل الحريق، ولم يُصب أحد بأذى إلا الطبيب النبطشي تلك الليلة د. حسام بصير الله، والذي راح ضحية الحريق تلك الليلة بعدما حاول المساعدة في إطفائه، لكنه مات بعدما اشتعلت به النار ولم يستطع الممرضين إخماده في الوقت المناسب».

توقفت من القراءة وأنا أرفع عيني عن الجريدة، والأسئلة تعصف برأسي. هل ظهرت روح «حسام» لخالتي كي تعذرها من الحريق وتعلمها على المغادرة؟ كيف هذا وهو لم يكن قد مات إلا بعد مغادرة خالتي المستشفى واشتعال الحريق؟
أغمضت عيني وأنا أبحث عن حل لما حدث، وحتى الآن لم أجده.

تمت



نفيير الحرب

شقيقي وعزيزي/ رؤوف محمد سعيد.

تحية طيبة وبعد..

أرسل لك أرق تحياتي من مصر، كما أبلغك سلام شقيقتي «سامية» و«ليلي»، وأعرفك بأن شقيقنا الصغير «صادق» قد قرر التقدم للزواج من إحدى زميلاته في الجامعة. لا أعلم هل كبر «صادق» فجأة بعدما سافرت أنت لروسيا؟ أم أنني انشغلت عنه بعلمي في هيئة الأكار المصرية؟ حتى فاجأني هو بأنه يبحث الآن عن حقه الإنجابي في التكاثر كبقية البشر. هذا الجيل الجديد مختلف تمامًا عنا؛ فانت صعدت على الوصول لأعلى المراتب العلمية في الهندسة، وأنا أصريت على الوصول لدرجة الدكتوراة في علم الأكار وما بعدها من مراتب علمية، وها نحن إلى الآن لم نفكر حديثًا في الزواج، أما هو فبمجرد أن رأى بعض الشعر لمطاطير في الهواء والقليل من مساحيق التجميل على وجه أنثوي، قرر أن يلبي نداء الطبيعة الحيواني ويبدأ بتكوين أسرته قبل أن يكون حقه. إن أردت الحقيقة لا أعلم أي منا على صواب، هل جيله الجديد بأفكاره الغربية هو الذي سيستحق أن يرث الأرض من بعدنا؟ أم جيلنا المكافح الهادئ الذي كان يعلم بأن غير الكون يبعده؟ على كلٍّ لم أصارحه بذلك الخواطر واحتفظت بها لنفسِي ولك.

أخبرته بالطبع أنني سأرسل خطابًا لك لأعرف رأيك، وإن كنت
أنتهى أن توافق يا مؤوف على زواجه، فهو في النهاية شقيقنا
الساذج الذي ربيناه منذ أن كان طفلًا حتى أصبح الآن مليئًا لنساء
الطبيعة. أصرى أنك لن تستطيع تركه يفتك الآن والعودة لمصر
لحضور الخطبة، لكني سأضغط على أهل العروس حتى نكتفي
بقراءة الفاتحة ولتداء دبل الخطوبة في حفل بسيط بمنزلهم
ونؤجل الخطبة الرسمية وتقديم الشبكة لحين عودتك من الخارج
في إجارتك القادمة. كل ما أريده منك أن ترسل خطابك القادم وهو
يتضمن موافقتك وتهنئتك لصادق، لأنه فجأة أصبح يسمح أخائي
«أم كلثوم» و«عبد الحليم» التي تحدث عن الهجر والفراق بعدما
أخبرته بأنني سأرسل لك نود علينا بللواقة أو الرفض. تلك الأختاني
تصيح في جنبات الشقة ليل نهار، حتى كادت تفقدني أعصابي
لدرجة تفكيري في أن أحطم رأس شقيقنا بمنقضة السجانيه لكني
تراجعت بعد تفكيري لذا أنتظر خطابك بمرحة.

بأنني الآن للحقيقة من إرسال خطابي لك، في كل الأحوال كنت
سأكتب لك هذا الخطاب بعد أيام، لانشغالي الآن بمتابعة ومراقبة
بعدة لجانة جاءت إلى القاهرة منذ أسبوعين. وافقت البعثة لأسوان
منذ عشرة أيام وكان من المفترض أن يعود معهم للقاهرة بعد
ثلاثة أسابيع على الأقل، لكن حدث ما أجبرني على العودة اليوم
بالتحديد وهذا ما أردت أن أتحدث معك عنه في هذا الخطاب
رما لأخرجها بضمير في ذهني أو لأسمع رأيك، لا أعلم، لكني أجد

نفسى أكتب لك هذا الخطاب بعد منتصف الليل قبل أن أتحرك
هنا عائدًا لأسوان بعدما حدث اليوم.

أمس، وأنا في الفندق بأسوان وقبل الغداء مع أفراد البعثة،
أبلغني موظف استقبال الفندق بالاتصال من القاهرة، كان المتحدث
هو الدكتور كمال عز العرب، صديقي وزميلي بهيئة الأثار المصرية،
بعد القليل من السلام أخبرني بوجود عالم للمصريات البريطاني الشاب
جاريد فيرنون بالقاهرة هو وبعض البريطانيين الهواة. هذا الشاب
المتجبرف لمتهور عاد لمصر مرة ثانية. كثيرًا ما ألقى بالاستنتاجات
السريعة الخيبة على الحضارة المصرية القديمة، وهذه الاستنتاجات
كثيرًا ما أصعبت أوريا التي ما زالت لا ترى في مصر سوى تاريخ
خيالي قديم وحاضر متخلف يمثله بعض البدو الرحالة.

وهذه هي نظرة «جاريد» لنا كمصريين الآن، نظرة رأيته في
عينيه في لقائي الأول معه، كأنه يقول لنا أنتم متخلفون لا تستحقون
تاريخ أجدادكم، ويا ليتة اكتفى بهذا، إلا أنه دائمًا ما يعيث
بتاريخنا المصري؛ فأوراقه البحثية التي ينشرها تملئ بالكلام عن
الحياة الجنسية للمصريين القدماء وعاداتهم الغريبة التي استنتجها
هو من بضعة أشياء غير ذات صلة، هذا غير كتبه التي ينشرها
ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وتملئ بتلك الترهات وتحقق
الكثير من المبيعات.

سألت «كمال» عن سبب زيارته، ومن هؤلاء الهواة الذين
أحضرهم، فأخبرني بأنه لا يعلم سوى أنه أقنع إدارة المتحف المصري

بإخراج بعض القطع الأثرية لمقبرة توت عنخ آمون من المخازن لتصويرها وكتابة بعض المقالات البحثية عنها، والمراقبين له لا يعلم «كمال» عنهم إلا أنهم لهم علاقة بجهات إعلامية ربما كانت صحفية أو إذاعية أو نشر.

بعد الكثير من السباب الذي أطلقته على «جاريد» ومن معه ومن سهل له الوصول للمتحف وإقناع المسئولين، استفسرت من «كمال» عن موعد إخراج القطع الأثرية من المخزن وعرضها فأخبرني بأنها غداً - الحوار التليفوني كان أمس - هنا أخبرت «كمال» بأن يتواصل بسرعة مع كل من يستطيع ليضعوا اسمي في الوفد المصري الذي سيحضر تلك المقابلة في الغد باعتباري مفتش آثار. وعدني «كمال» بذلك وأخبرته أنا أنني سأغادر من أسوان في أقرب فرصة لأكون بالقاهرة غداً، صباحاً على أكثر تقدير.

أطلقت خط الهاتف واعتذرت للبعثة بأنني سأغيب اليوم وأعود بعد غد لظروف طارئة في القاهرة. حجزت القطار ووصلت القاهرة في الصباح كما توقععت. ذهبت لشقتنا لأرتاح قليلاً، هاتف «كمال» فأخبرني أن «جاريد» ومن معه سيكونون في المتحف الساعة الواحدة ظهراً وأنتي سأرافق اثنين من العلماء المصريين. قبل أن أخلق الهاتف مع «كمال» سألته هل علم بعد ما هي القطع التي يريد «جاريد» رؤيتها، فأخبرني أنه طلب رؤية محتاجر الملك توت عنخ آمون والأبواق الخاصة به. هنا فهمت كل شيء، عرفت ما يدور بخلد «جاريد»، لذا قبل الموعد بساعة كاملة كنت في

المتحف، أعرف معظم من يشتغلون بالمتحف المصري بداية من عم «جميل» رئيس الأمن إلى مدير المتحف شخصيًا، والذي كان زميل دراسة مقربًا وصديقًا حميمًا ما زال يسأل عليّ بين الحين والآخر، لا يفرقنا سوى قلة الوقت في حياتنا الشخصية. بعد دخول المتحف سلمت عليّ عم «أمين» وجلست معه في غرفة الأمن للشرب الشاي ولتعيد ذكريات حضوري للمتحف كل يوم أثناء تعضيبي لرسالة الماجستير ثم الدكتوراة، كما شكرني عليّ ترشيحي له للعمل في المتحف منذ سنوات طويلة حتى استطاع الترقى إلى رئيس الأمن. استمرت جلستنا لنصف ساعة طلبت منه في نهايتها بضعة أشياء وقرر هو فعلها بصدور رجب. تركته لأبحث عن العلماء المصريين الذين سيرافقوني أمام المعنوه «جاريذ»، وجدت الدكتور «سامح» ودكتور «عاطف»، تناقشنا في هدف تلك الزيارة وسببها ونحن في طريقنا للمخزن. كنا قد أخرجنا القطع المطلوبة منذ ساعات من الصناديق المرقمة ووضعناها في المخزن حتى ننقلها قبل الموعد المحدد للمكتب الذي سيطلع فيه «جاريذ» ومن معه عليها.

ساعدتهم في نقل القطع للمكتب وجلست بجانبهم أتأمل تلك العبقريّة التي تركها لنا أجدادنا. أعلم يا «رؤوف» أنك لا تهتم في الغالب بالمصريّات، لكن هذا لن يمنعك من الانبهار بما جلست أتأمله أنا، خناجر الملك توت عنخ آمون، كنا خنجرين أحدهما زُخرف ملبّسه بالنقوش الذهبية وُشّح نعله من الذهب، والثاني له نقوش مشابهة للأول عليّ المقبض، لكن نصل الخنجر الثاني،

كان من الحديد، نُقش على الخنجر عبارة ترجمتها هي «حديد من السماء». لهذا يا «رؤوف» قلت لك إنني عرفت ما سبب زيارة المعتوة البريطاني؛ هذه العبارة هي أحد الأسباب «حديد من السماء» أو «معدن من السماء». سيتكلم في الغالب عن أشياء خيالية بناء على تلك العبارة، لهذا حضرت اليوم لأحيل زيارته لجميع، لن أتكره يشوه لتريخنا بسبب بعض الخيال العلمي الدائر برأسه.

بقية القطع هي أبواق الملك، وهي الآن، بوق بطول 50 سنتيمتر مصنوع من الفضة ومطلي بالذهب عند أطرافه، نهاية البوق هناك جلبة أسطوانية غُطيت بالذهب تشبه شكل بوق الجرامافون، عليها نُقشت صورة للملك وأمامه تمثال للإله بتاح، وخلفها رسم غير واضح، هذا البوق رجح أنه بوق أو نفير الحرب الخاص بالملك.

أما البوق الثاني فمصنوع من النحاس بمواصفات قريبة من بوق الحرب، وإجمال أنه كان يستخدم للتشريفات العسكرية. أنا أمرت أيضًا لما طلب «جيرالد» أبواق الملك، للأسطورة التي أحاطتها عند الأيرين.

قبل أن تدق الساعة الواحدة بدقائق وجدنا هم «جميل» قد أتى ومعه «جيرالد» وثلاثة آخرين، كنت قد طلبت منه أن ينتظر «جيرالد» ومن معه ويعطروهم لهذا المكتب فور وصولهم. بمجرد أن وقعت عين المعتوة البريطاني عليّ حتى ظهر القرف على وجهه، فنحن نكره بعضنا بعد أن تطور النقاش بيننا آخر مرة ووصل إل

السباب، وأنا لي باع طويل في السباب بالإنجليزية والفرنسية كما تعرف.

دخلوا المكتب وحدث تعارف سريع أكد فسكوي. من معه، مدير لدار نشر بريطانية وآخر صحفي لجريدة الجارديان ويرافقه مصور فوتوجرافي. وقلت أنا بعيدًا عنهم قليلًا وذراعي معلقة أمام صدري بتعدي وعلى وجهي علامات الترقب. أخرج المصور من حقيبة يحملها كامرته وأخذ يثبت عليها الفلاش بينما «جيرالد» يحسك الخنجر ذا النصل الحديدى ويرفضه أمامهم وهو يشرح مرافقيه قائلاً بالإنجليزية الأكسفوردية:

«هذا الخنجر وجده السيد «كارتر» ملفوفًا بلثائف كتانية على الفخذ الأيمن للملك، وهذا يدل على أهميته، فوضع التهامم والمجوهرات في اللثائف الكتانية حول المومياء هو الطقس الشائع وخاصة التهامم لحماية الملك في رحلته للعالم الآخر. أما وضع خنجر فهو يعني رمزًا هامًا لا يمكن إغفاله، هل قصدوا أن الخنجر سيحمي الملك ضد أعدائه في العالم الآخر؟ أم أن الملك قدس هذا الخنجر بالذات؟ خاصة وأن الخنجر الآخر يرغم أنه مصنوع من الذهب كان بعيدًا عن المومياء، أما هذا فصنع نصله من الحديد». فكرت أنا سمعتها بأن كلامه للأسف يحمل بعض للمنطقية، فجزء من علم الآثار يقوم على الأسئلة والاستنتاج لقلة الأدوات البعثية في هذا العلم. تلمعت في وقتي وأنا أنتظره ليغطي كي يكون تدخلني مناسبًا. قال:

«الحديد نفسه غريب، فلو تأملنا الفراعنة ومشغولاتهم البدوية لوجدنا أن تشكيل الحديد وصناعته كانا نادريْن أو منعدمين في الألفب، فلم يستخدموا خام الحديد في أي مشغولات لصعوبة الحصول عليه، هذا غير أن الصدا سيغطيه».

رفع «جيرالد» الخنجر ناحية مرافقيه بحركة مسرحية وهو يقول:

«أما هذا الحديد فلم يعد، أليس هذا غريبًا؟ كما يمكنكم تأمل النقوش الهيروغليفية على الخنجر، والتي تقول «معدن من السماء». هل اعتقدوا أن الآلهة أرسلت لهم الخنجر؟ أم صنعه؟ أم أن معدنه غير أرضي؟».

هنا حان وقت تدخلي فقلت بالإنجليزية أكسفوردية متعديًا لكلمة «جيرالد»:

«أعشى أنك تتكلم بلا منطقية، لقد استخدمت مقدمات غير صحيحة لتقفز على نتيجة غير منطقية. امتلأت التماثيل والنقوش الفرعونية بعبارات رمزية تتعلق بالعامم الآخر والآلهة والحياة والموت والبعث، هذه العبارة تنتمي لسلسلة العبارات الرمزية ولا يوجد منطق لأن تأخذ معناها الحرفي وتقول إن المعدن غير أرضي».

كان المصور قد انتهى من تجهيز كاميرته، رفعها ليلتقط لي صورة بسرعة والجميع ينظر لي، أما «جيرالد» فقد نظر لي ببرود وقال:

«كنت أعرف أنك ستحدث، فقد انتظرتك، دليلي هو تقرير كلية العلوم بجامعة مينيسوتا».

والحق يقال يا «رؤوف» إنني شعرت بالخوف فجأة، لا أعلم شيء عن أي تقرير، لكن أعلم أن جامعة «مينيسوتا» تطوعت بأخذ بعض العينات من المتحف المصري منذ عام لتحليلها ضمن مشروع ترميمي للمتحف. ما الذي أصدرته الجامعة ويتعلق بهذا الخنجر؟ لم أفكر كثيراً إلا و«جيرالد» يقول بغير استهزاء:

«التقرير يشير إلى أن تكوين نصل الخنجر هو الحديد مع تركيزات عالية من النيكل والكوبالت، هذه التركيزات لا توجد داخل الحديد على الأرض، أي أنه لا يوجد معدن على الأرض بهذا التكوين. نهاية التقرير تصرح بما قلناه: إن تلك التركيزات توجد خارج الأرض، أي أننا نتحدث عن خنجر من الفضاء الخارجي».

أخذ المصور لي بعض اللقطات التي اعتقد أنني ظهرت بها مفتوح الفم متسع العينين من الصدمة. لقد تفوق عليّ «جيرالد» وسحقني. هذه المبارزة غير عادلة، فلم أكن أعلم شيئاً عن التقرير، أما هو فقد تباطأ في الحديث عن التقرير ليستفزني كي أعارض في البداية فيعرجني هو في النهاية. فجأة يا «رؤوف» جامني الإلهام، فصرخت فيهم منتصراً:

«النيك».

توقف الجميع عن الحركة أو حتى التنفس، ناظرين لي بتربص. أكملت أنا مبتسماً:

«عبارة معدن من السماء من الممكن أن يقصد بها النيازك الآتية من الفضاء الخارجي. الأديان القديمة قنست النيازك واعتبرتها أنها

هدايا من الآلهة أو هدايا من الجنة، ومصر ساطعت فيها الكثير من النيازك في العصور القديمة، لذلك قدسوا معادنها وصنعوا من الخنجر، لذلك تركيز الكويالت والنيكل في الحديد كان غير أرفي لأنه أتى من نيزك».

أخذ المنصور بعض اللقطات لي مرة ثانية، ولكنني متأكد أن وجهي كان يصرخ بالانتصار، وخاصة بعد أن رأيت وجه «جيرالد» الذي ظهر الغضب عليه. لقد رددت له هربة أقوى من التي وجهها.
ردّ عليّ بنبرات باردة ووجه خاضب:

«أنا أهتم على تقرير علمي وأنت تعتمد على استنتاج استخدام النيازك في المشغولات المصرية القديمة، وحتى تأتي بالبان علمي يظل كلامك مجرد افتراض، أما كلامي فهو حقيقة علمية».
قال مدير دكر النشر له، معاتبًا:

«لكن كلامه منطقي، إن أردت أن تتحدث عن الخنجر في كتابك الجديد فيجب أن تذكر نص ما قاله، كي لا تُتهم بعدم المصداقية».
أعتقد أن صاحب دار النشر يتعامل أول مرة مع «جيرالد»، كما أعتقد أنه يريد كتابًا علميًا أكثر من كتب «جيرالد» السابقة التي نشرها مع دور نشر قليلة المستوى كبيعة الانتشار. هز «جيرالد» رأسه وهو يترك الخنجر ويتناول بوق الحرب من على المنضدة ويقول:
«هذا هو بوق الحرب الخاص بتوت عنخ آمون، صنع الأنبوب من المعدن المطلي بالذهب والنقوش، فوهة البوق قطعة منفصلة

أُحمت بالأنبوب بالفضة، الفوهة الذهبية رُسم عليها الملك همسه الصولحان ويقف أمام «بتاح» الذي قُتل في فكل مومياء. عام 1937 وفي حفل رسمي حاول أحد الأثريين النفخ على البوق أمام الملك المصري «فاروق الأول» تيجيلاً له، لكن البوق أصابه عطب غير مبرر ولم يعزف عليه. أُعيد البوق للمتحف ومر بعملية ترميم طويلة، حتى جاء مذيع إذاعة «BBC» البريطانية السيد «ركس كينتنج» في 31 أغسطس 1939 وأقنع إدارة المتحف ببيت حلقة إذاعية من داخل المتحف لهيئة الإذاعة البريطانية، وأن يتم النفخ في البوق لأول مرة في التاريخ الحديث على الهواء أمام 150 مليون مستمع.

للأسف كلامه صحيح، نظر هو لي بطرف عتيبه ثم عاد بنظره لهم، وهو يكمل بطريقة المسرحية:

«وقام المذيع ببيت اللقاء وهو يقول سيداتي سادتي من داخل المتحف المصري تستمعون لنفخ الحرب الخاص بالملك فوت عذغ أمونه وعزف على البوق لتوان قليلة».

تنفس «جيرالد» وهو ينظر في وجوههم ليراقب انفعالاتها وأكمل: «بعدها بأيام، وبالتحديد يوم 3 سبتمبر أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا لتبدأ الحرب العالمية الثانية التي استمرت حتى عام 1945 كما تعلمون».

للأسف كلامه صحيح هنا أيضًا وتسجيل الحلقة ما زال موجودًا بأرشيف إذاعة البي بي سي إلى الآن كما أن هناك نسخة منه في هيئة الأناضول المصرية. قال «جيرالد»:

صن ينفخ البوق يعلن الحرب، هل لأن المذبح بريطاني فبلاده هي التي أعلنت الحرب؟ هل لو نطقه هولندي فستعلن هولندا الحرب بعد أيام على أحد الأطراف؟.

انتهى «جيراند» من حديثه، بينما المصور يلتقط الصور. نظري مراقبوه كأنهم ينتظرون رأيي. ابتسمت أنا وقلت:

«1936 شكلت ألمانيا مع إيطاليا حلفًا عسكريًا سُمي «روما برلين»، وانضمت لهم اليابان فيما بعد. وفي نفس العام شكلت ألمانيا مع اليابان حلف «مناهضة الكومنترن»، ثم في بداية عام 1939 وقعت ألمانيا مع الاتحاد السوفيتي معاهدة عدم اعتداء ونصت على بنود اشتراكهما في الحرب على بعض الدول. العالم كان يشعل في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، ويولندا كانت تقوم بمذابح للألمان في المناطق التي احتلتها من ألمانيا منذ الحرب العالمية الأولى. كانت تقوم باستفزاز «هتلر» عسكريًا للدخول معها في حرب منذ عام 1938، وهو قد استجاب لذلك في الأول من سبتمبر 1939 واحتلها بمساعدة الاتحاد السوفيتي. العالم كله كان يعرف أن الحرب آتية، بل وهناك بعض المؤرخين يعتبرون أن احتلال اليابان للصين عام 1937 هي بداية الحرب العالمية. كلامك خاطئ يا سيد «جيراند» مرة ثانية».

رد عليّ «جيراند» بسرعة:

«العالم يشعل منذ الأزل ويمتلئ بالمعالفات، الآن ولدتنا في المستقبل، إنها الحرب هي الشيء النادر».

«إذن أنت تقول بأن النفع في هذا البوق يمنع الحرب، لماذا لا تنفع فيه لنرى هل ستمعلن بريطانيا الحرب أم لا؟».

«أنا لا أريد لبلدي الحرب، لكن طالما أنك واثق أن البوق لا خوف منه فليَمْ لا تنفع أنت فيه؟».

ناولني «جيرالد» البوق فأمسكته بعرض شديد وأنا أقول:

«لو نفعني ولم يحدث شيء فأنت مدين لي باعتذار كبير على تشويهك تاريخ أجدادي ومحاولة إحاطته بالخرافات».

قلت عبارتي يا «رؤوف» ولم أفتقر رد «جيرالد» الذي بُهِت. رفعت البوق لفمي ونفخت فيه بتأنٍ فخرج صوتٌ قوي جدًا، مغيبة أنا نفسي شعرت بالرعب وأنا أسمع. استمر نفخي لثواني قبل أن تنطلق الأنواء في المكتبة غرقنا في الظلام فتوقفت عن النفع.

صرخ أحد مرافقي «جيرالد» أنه يشعر برياح تأتي من مكان ما، أنت أصوات البقية يقولون نفس الشيء، لم أشعر أنا بأي رياح، لكنني سمعت صوتًا يأتي من داخل المكتبة كأنها حركة أقدام سريعة. عادت الإضاءة مرة ثانية فوجدت العيون كلها تنظر لي متسعة، حتى «جيرالد» نفسه فقد وقاره وهو يصرخ في أنفي غبي: أما أنا فتناديت بالعربية بأعلى صوت قللاً:

«كمال يا هم جميل».

الفتح باب المكتبة ليظهر هم «جميل» بشأريه وكراهه بينما

قلت أنا بفصح بالإنجليزية:

«سيد «جميل» رئيس الأمن بالمتحف اتفقت معه قبل حضوركم على أن يقف على باب المكتب ويقتظر إلى أن يسمع صوت بوقه عندها يفتح زر الإنشاء، لو لاحظتم أن نصف الغرف والمكاتب في المتحف أضرار إصابتها في خارج الغرفة على النمط القديم».

نظرت لهم «جميل» وطلبت منه بالعربية أن يقف خارج المكتب ويطلق الإنشاء ويفتحها، ففعل، ونظرات الجميع معلقة به بعد أن انتهى هم «جميل» طلبت منه الانصراف لعمله، ثم قلت لهم بالإنجليزية:

«أخفى أنكم وقعتم في فخ التأثير النفسي فشعر بعضكم برباح وفي الغالب شعر الآخرون بأصوات أقدام تمشي في الغرفة. الحقيقة أن علي «جيرالد» أن يعتذر ليس لي فقط بل ولمصر كلها على ما يقوله عن آلاوله».

تقدم مني مدير دار النشر وأخرج كارتًا شخصيًا له، أعطاه لي وهو يطلب مني أن أحدثه على أرقام مكتبه في لندن بعد أيام، لينشر لي أنا كتابًا عن التاريخ المصري، ثم نظر للمراقبين المصريين وشكرهم على تعاونهم وطلب المغادرة. خرج من الغرفة و«جيرالد» والمصطفي والمصور يتبعونه. تلقيت التهناتي من دكتور «سامح» ودكتور «عاطف» اللذان أديا دور المصاهدين لما كان يحدث منذ قليل. اعتذرت لهما بأنني سأدخل الحمام وأعود لهما.

خرجت من المكتب واتجهت لغرفة الأمن لأجد هم «جميل» وضعت في يده القليل من النقود وأنا أشكره لكنه رفضها وهو

يخبرني بشيء غريب، قال لي إنه لم يطلق زر الإضاءة، لأنه قبل أن يلمس الزر انقطعت الإضاءة عن المتصف كله بعد أن سمع صوت البوق.

تأكدت يا «رؤوف» من كلامه عندما سألت من كانوا بالمتصف، والغريب أنهم جميعًا سمعوا صوت البوق لكن لم يميزوا كينونته، فبعضهم اعتقد أنه راديو بيت مقطوعة موسيقية عالية.

أنا لا أؤمن بالغرافات يا شقيقي، القطاع الكهربائي أمر طبيعي مصر، لكن ما هي نسبة احتمالات أن يحدث هذا في لحظة نفيح النعير؟ وهل شعر البعض برياح حارقة؟ وهل سمعت أنا أصوات الأقدام داخل المكتب تتحرك بسرعة ولم أكن أهدئ؟ على كل التقديرات، تظل تلك الحكاية بلا تفسير، وإن لم أكن متأكدًا مما حدث، فعلى الأقل أنا متأكد أن مصر لن تطحن العرب الآن.

لك تعباتي ووداعي يا «رؤوف»، وأنتظر خطابك القادم. وأرجو أن تحصل سريعًا على درجة الدكتوراة في الهندسة من الاتحاد السوفيتي في أقرب وقت.

شقيقي

إيطالي محمد سعيد

القاهرة- مصر

22 مايو 1967



في وادي المستضعفين

(1)

«كان لك معايا.. أجمل حكاية.. في العمر كله. سنين بحالها.. ما فات جمالها.. على حُب قبله»

انسابت أغنية «أم كلثوم» من سماعات الكومبيوتر القديم، و«هشام» يجلس أمامه في غرفة نومه، وبجانبه أصدقائه «شريف» و«فادي» و«أحمد» ينظرون له بهلل وهو يحرك رأسه ميئاً ويساراً مع كلمات الأغنية.

«سنين ومريت زي الثواني في حبك إنت.. وإن كنت أقدر أحب تاني.. أحبك إنت».

«جري إيه يا روح أمك؟»

جاءت كلمة «روح أمك» لتنبّه الجالسين بأن هذا الصوت لم يأت من الأغنية. نظروا لبعضهم البعض بدهشة لثوانٍ قبل أن يهزوا رؤوسهم بفهم وهم يستمعون لسيلٍ من السباب يأتيهم من نافذة الغرفة المظلة على الشارع. الصوت يعود له النولو، بلطجي المنطقة الذي يفتعل عراكاً كل يوم دون سبب مع أحد الحارة. أخلق «هشام» الأغنية وجلس على مقعده المواجه للكمبيوتر،

معطيًا ظهره لأصدقائه الذين بدأوا يتحدثون بشكل طبيعي.
وأصوات السباب تأتيهم من الشارع وكأنهم تعودوا على ذلك. قال
«فادي» بتأفف:

- هو كل يوم «التولو» يعمل خنافة؟

وضع «شريف» قدمًا فوق الأخرى قائلاً:

- لازم يثبت نفسه، علشان الناس متنسَاهوش مع الوقت.

- إلا هو اسمه «التولو» ليه؟

قالها «أحمد» بهدوء، فقال «شريف» بلهجة العارف بكل الأمور:

- اسمه الحقيقي «عبد الفضيل»، بس هو مسمي نفسه «التولو»

علشان اسم يليق ببنطهم. يا راجل دا بقى يشرب بانجو وهو
مبيدخنش علشان فاكِر إن الصايح لازم يدخن ويشد بودرة.

- أنا فاكِر إنه كان بيلعب معانا وإحنا صغيرين، مش هو في

سننا برضو؟

- أكبر معنا بسنة واحدة، يعني لو كان كمل تعليمه المفروض

يبقى في رابعة كلية السنة دي.

زادت أصوات السباب كثيرًا من طرف «التولو»، حتى سمعوا

أصوات رجل يتأوه بهدة، رجحوا أن «التولو» طوّر من مرحلة

السباب ووصل إلى العراك بالأيدي. نهض «فادي» و«أحمد»

يشاهدان من خاص النافذة ما يحدث في الشارع، و«شريف»

ينظر إلى «هشام» الذي أخذ يحرك سهم الماوس هينًا ويسارًا على

شاشة الكمبيوتر بلا هدف، يخيل لمن يتابعه أنه شارد الذهن
لكنه فجأة قال بجديّة شديدة:

- ما كفاية فرجة منك له!

رد عليه «فادي» دون تحريك نظره عن النافذة قائلاً:

- استنى بس، دا «النولو» بيعمل الحركة بتامته المشهورة، مثبت
الواد على الأرض ويباكره على قفاه.

صرخ «هشام» فيهما:

- قلت كفاية.

تذكر «شريف» و«فادي» في نفس اللحظة المشاكل التي بين
«هشام» و«النولو» منذ عام، وكيف ضرب «النولو» «هشام» بنفس
الطريقة مرتين وأهانته وسط الجميع.

ابتعدا عن النافذة بضجل، وعادا للجلوس. مرت لحظات صامتة
طويلة انتهى فيها العراك بالشارع وعاد الهدوء، هدوء ثقيل لزج
يشعرك بالاغتناق، لأن الجميع يفكر في نفس الأحداث لكن بلا
قدرة على إخراجها من حيز الأفكار إلى الكلام الحقيقي. الجميع
يفكر فيما حدث قديمًا وما حدث منذ عام واحد.

«النولو» الفتى الذي قرر التحول لبلطجي منذ خمس سنوات
بعد أن تعرض والده للضرب من بلطجي آخر في شارع قريب
لهم من منطقة «مساكن الزلزال» بالمقطم، تاجر بجميع المخدرات
والمكيفات تحت يد أحد المعلمين في المنطقة والذي أعطاه الحماية

ورأس المال والبضائع، حماية من كل نوع ممكن تخيله، فرجل المعلم يساعدونه إذا لزم الأمر، وصلات المعلم ببعض ضباط الشرطة الفاسدين تحت أمر «النولو»، وجميع أنواع المخدرات يقوم بتوزيعها لحساب المعلم ويلبض هو نسبة من الأرباح.

ولا يعرف أحد السبب الحقيقي وراء هذا الاهتمام، يقولون إن المعلم يرى في هذا الفتى مستقبلاً إجرامياً واعداً ومن واجبه أن يهتم بتنشئة الجيل القادم ليحملوا الراية من بعده. ويقول آخرون إن بينه وبين «النولو» علاقة جنسية شاذة، وآخرون يصرون على أن «النولو» هو ابن المعلم من علاقة غير شرعية وقد تركه مع رجل طيب ليربيه حتى يشتد عوده ويعود للمعلم ليكمل تربيته. القصص متباينة لكنها تبقى داخل صدور أهل منطقة «مساكن الزلازل»، لا تجاوز ألسنتهم كي لا تُقطع.

و«النولو» يصر على الحياة كبلطجي كلاسيكي يستمد طريقه من الأفلام المصرية التي صوّرت البلطجية وظهرت آخر عشر سنوات، فالنولو يستمتع بالجلوس أمام بيته في الشارع مرتدياً ثاللة داخلية بيضاء متسخة وسروال «ترنج» قديم و«كوتشي» أبيض بهت لون بالقرب من الأصغر المتسخ، يدخن سيجارة ويشرب كوب شاي أسود كالعين، دائماً كوب الشاي بجانب السيجارة، دع الكوكاكولا والعصائر للأطفال. على كل حال لن تستطع تخيل بلطجي يشرب السيجارة بجانب مصير المانجة.

يحب «النولو» فتح فمه دائماً بلا داع، كأنه يهم بقول شيء

واقعه الفم غير المفهومة تكمل الصورة مع تلطيب جيده ومنح
الانتماءات.

أخف على هذا صوته المبحوح الذي لا يفهم أي شخص في
المنطقة كيف اكتسبه، وطريقة حديثه البطيئة الناعمة والتي لا
مجرد لها هي الأخرى، فهو لا يتناول المخدرات كثيره وكأنه يمثل
دور غالب الوحي دائما.

حاول الكثيرون قديمًا الاحكام به لكنه برغم تحول جسده قد
فكك بهم بشراسة غريبة، واستخدم تلك الخطوة التي يعملها معه
دائمًا بحرفية يحسده عليها كل الباطنية. استطاع إحداث شروخ في
عظام من وقفوا أمامه، وجروح على أجسادهم لم تُشف حتى الآن.
فرض سطوته على مجموعة الشوارع المحيطة بمنزله، وهي سطوة لم
تطلب من أهالي المنطقة سوى أن يجعلوه ويظهروا الاحترام والخوف
عند المرور أمامهم.

«حشام» على الناحية الأخرى كان فتى ذكيًا له طلة معيبة عند
أهل المنطقة بابتسامته الدائمة وتواضعه في التعامل معهم. شقيقته
«ريم» - توأمه غير المتماثل - كانت معبوبة هي الأخرى لرقتها
وهذونها التي تائل فيهما أخاها، وأديها الذي أصبح مثلاً تفريه
أمهات الشارع لبناتها، مكتملة الأثولة هي، جميلة، تدلري بحجابها
شعرًا طويلًا ناعمًا يتذكره الجميع عندما لعبت في طفولتها مع بقية
أطفال الشارع قبل ارتدادها إياه.

وكان طبيعيًا أن يتوافد العرسان طابورًا قبل دخولها الجامعة،

والجميع رفضتهم لأنها بسبب وصية والدها قبل موته قدّمها بأن تحصل «ريم» على الشهادة الجامعية قبل زواجها. ولأنها في كلية الحقوق مع شقيقتها فقد اقترَب موعد تخرجها واقترَب أمل سبب للمنطقة في إعادة الكرة وطلب يدها لربما فال بها أحدهم.

حتى بدأت الأحداث غير المرغوبة! تقدم «النولو» لطلب يدها. رفض «هشام» وأمه كان متوقعًا ومنطقيًا، ورفض «ريم» بل وربما من مجرد التفكير بالزواج من «النولو»، كان واضحًا عليها. ثم تليق «النولو» برفض الزواج بأدب شديد الخفضي هذا الأخير عن المنطقة ليومين اعتقد البعض أنه رحل أو فُرض عليه بالصدفة، لكنه عاد مجنونًا.

زادت فتحة سمه لتساقًا وكثرت أكواب الشاي والسجائر وهو يجلس يوميًا بالقرب من العمارة التي تقطن بها «ريم». ينظر لها نظرة غريبة وهي تسير بجانب شقيقتها صباحًا للذهاب للكلية. حاول «هشام» تجنب التركيز معه ومع نظراته الغريبة التي هي خليط من العتاب والغضب والذهول.

في عودتها من الكلية تأتي وحيدة في الغالب لأن «هشام» يتمش مع أصدقائه، ونفس نظراته تطاردوها. استمر الحال بهذا الشكل للمريب ثلاثة أيام، فجأة قرر «النولو» اتخاذ ردة فعل.

في أحد أيام عودتها، وقف «النولو» بجانب موقف الميكروناص القريب من المنطقة، وبجانبه أحد رجال المعلم يقود «توكتوله»

انتظر لساعات يراقب الميكروباصات، خطته واهية جدًا فلم تأت هي لهذا الموقف لانتظرها كل يوم، لكن ها هي «ريم» تنزل من الميكروباص وحيدة، ركب في المقعد الخلفي للتوكتوك وأمر سائقه أن يسير خلفها في الشوارع دون أن تلاحظهم.

في شارع جانبي لا يسير فيه الكثير من الناس، أمر سائق «التوكتوك» بالإسراع والوقوف بجانبها. سحبها «الدلو» لداخل التوكتوك والسائق يحاول الإسراع به التوكتوك، «الدلو» عند هذا الحد لم يكن فكر ما الذي ينوي فعله، حاول لقبليها فصرخت هي وهي تبعد وجهه عنها، فتك العنان ليده لتحتل جسدها عضواتها، وكلما اعترضه جزء من ملابسها مزقتها بعصية.

بدا على السائق التوتر فزاد من سرعة «التوكتوك» وصراخ «ريم» يزيد محاولاً إبعاد يده بأقصى قوة لديها، لكنه نجح في تمزيق جزء من ملابسها عند الصدر بمطوئه فطاله نصل المطواة ليخرج أعلى صدرها بجرح طولي.

اتبعه الناس وحاولوا إيقاف «التوكتوك» الذي جُنَّ سائقه وهو يتفادي المارين بحركات بهلوانية حتى انقلب على جانبه الأيسر بعد مروره على حجر كبير ملقى على جانب الطريق.

القلب وتعالى صراخ «ريم» أكثر وهي تحاول الهروب منه، والغريب أن «التوكتوك» انقلب على ناصية الشارع الذي تقطن هي فيه. تنفج العشرات حول «التوكتوك» يخرجون «ريم» والبعض ينادي عينية عن جسدها الذي تمزقت الملابس في أكثر من موضع

فيه، وظهر جزء من صدرها مغطىً بالدماء التي رصحت بقعا على بقية الملابس التي تسترها.

دارى البعض جسدها بعناية أتت فجأة من أحد الأهالي، بينما هرب «النولو» والسائق بعد خروجهما. أصرت «ريم» على الذهاب لقسم البوليس لتقديم بلاغ، رفض أهالي الشارع وحاولوا تهديها لكنها صرخت بالهيار أنها ستذهب للقسم.

هنا الخطط العايل بالنابل، ولم يعرف أحد ما الذي حدث. ذهبت «ريم» بنفس حالتها لتقديم البلاغ ومعها عدد من أهالي الشارع ولحقت بهم الأم المنكوبة. عاد الجميع للشارع عدا «ريم»، فهر أمين شرطة من اللامكان في القسم وطلب «ريم» وحدها لإكمال المحضر، فجأة أدخلها الحجز الاحتياطي وأخبرهم أنها ستعرض على النيابة بتهمة ممارسة الدعارة، لم يفهموا ما حدث، لكنهم وجدوا مصفراً جاهزاً كتب فيه أن «ريم» قبض عليها داخل سيارة بالمظلم ووجد معها مالا دلالة على ممارسة الجنس مقابل المال، واعتقلت ووقعت على المحضر.

كما أخبرهم أمين الشرطة بأن العمل لخروج ابنتهم وعدم تسجيل المحضر الليلة أن يعذروا له «النولو» طالين منه السماح والرضا.

يمكنك أن تتخيل ما الذي فكر فيه الجميع، المعلم الذي يحضر «النولو» قام باتصالاته وقلب كل شيء على «ريم»، وزيادة في الإكثار يطلب من المحقق عليها أن تعذر للمعدي.

في وسط كل هذا نسي الجميع «مهام» الذي عرف بأهله

«النونو» على شقيقته فألقى للمنطقة جريئاً، ليجد «النونو» جالساً أمام منزله يدخلن السجائر ويشرب الشاي ويتركه فمه مفتوحاً. هجم عليه يكيل له اللكمات لكن «النونو» تصاداه وألقى الشاي الساخن على وجهه. حاول «هشام» مرة ثانية الهجوم عليه لكنه تلقى الكثير من الضربات بكل أجزاء جسده، ثم كبله «النونو» ووضع وجه «هشام» أرضاً ثم جلس فوق ظهره وعزى مؤخرة رأس «هشام» وهو يصلعه على قفاه بيده اليمنى ويكيل حركته بيده اليسرى ووراء كل صفحة يبعده هو وشقيقته بأقذر الألفاظ، حتى أخرج مطوخته وهو يقول صارخاً:

- على الله أهوف أخطاك تخرج من بيتكم من النهارده، اللي يعطيه من دا إنها تتجوزني، غير كذا هادبعك وأدبح أمك ومعدش ليه عندي دية.

جميع من في الشارع وقفوا صامتين، اللهم إلا من عرصات وعويل والدة «هشام» التي حجزتها النساء عند مدخل بيتها كي لا تتدخل وتصاب.

نظر «النونو» في عيون الواقفين وهو يشعر بالسلطة تتساقط أكثر لداخله، رفع مطوخته عاليًا وهو يقول لهشام:

- وعلشان متساش الكلام اللي قولتهولك، خد دي تفكره بيه.

أنزل المطوaxe على مؤخرة عنق «هشام» وأحدث فيها جرحاً سطحياً، ثم قال:

- ودي بقي حلفان تفتكر دايماً إلك مهي راجل.

ثم أحدث جرحاً آخر في مؤخرة «هشام» تناثرت على إثره الدماء وأغرقت سرواله. نهض «التولو» وعاد للجلوس على الدكة الخشبية أمام منزله بينما الأهالي يعملون «هشام» للمستشفى.

في الواقع خرجت «ريم» من القسم في نفس الليلة دون الاعتذار لأحد، دخلت المستشفى لتطبيب جرح صدرها ثم عادت للمنزل أرسل «التولو» أحد رجال المنطقة لثقتها بخبرها هي وأمها أنه أخرجها من العجز كبادرة لحسن النية، لكنه يؤكد عليها بالآ لخرج من المنزل إلا لو وافقت عليه زوجها لها.

وبشكل غير منطقي سارت الحياة في المنطقة، لم تخرج «ريم» ثانية من المنزل، وعاد «هشام» للمنزل بجروح في كرامته لم يستطع من وقتها أن يرفع عينه في عين شقيقته، وانتظمت الحياة بطريقة غير مفهومة.

حدث هذا منذ عام بالكامل، لم يحدث أي احتكاك بين «هشام» و«التولو» إلا مرة واحدة منذ بضعة أشهر، عندما قرر «هشام» تقديم بلاغ في «التولو» ليجد أن هذا الأخير يستقبله عند عودته للفارج، تلقى على يديه حلقة ساخنة أخرى انتهت بضغبات سريعة على مؤخرة عنقه لمزيد من الإهانة له وتذكيراً للجميع بأن «التولو» ما زال مسيطراً.

انتشرت القصة وعرفها الجميع حتى أنها وصلت لأصدقاء «هشام» بسبب قرب مساكنهم من المنطقة، وللأسف لا يكون شيئاً

ليقدموه لصديقتهم خوفًا من انتقام «الدونو» الذي ذاع صيته أكثر
الشهور السابقة، فهما همل الجميع فتح الموضوع أمامه، لكن نظرات
الشفقة له وخصت له معرفتهم بالحكاية ونهايتها الراجعية.

مرت كل تلك المعلومات والمواقف على رأسي صديقي هشام
الذي ما زال يجلس مغبًكًا ذراعويه أمام صدره يمرر عينيه بينهما
حائًا ما يجول في فؤاديهما. ابتلع ريقه وقال:

- روحوا اتكوا دلوقت، هايز أنام بدري علشان نازل الكلية بكره
الصبح.

- هنتام الساعة 8 بالليل؟ إيه جو الفراخ دا؟

قالتها «فادي» فلم يبدُ على «هشام» أنه سيجيب. نهض الجميع
لكن «هشام» قال:

- خليك هنا يا «شريف» علشان أقولك على حاجة.

جلس «شريف»، و «هشام» يرشد «أحمد» و«فادي» المندحفين
إلى طريق باب الشقة بنفسه، ويودعهما على «سام العمارة». عاد
«هشام» إلى «شريف» وأطلق باب الغرفة عليهما وهو يقول:

- ها إيه الأخبار يا «شريف» في الموضوع اللي اتكلمنا فيه؟
هاينفع الليلة؟

- أنا أخذت الإذن من فيفي إنك هاتزور المكان وبس.

جلس «هشام» على طرف فراشه وهو يقول متلهيًا:

- بس إنت وعدتني إنك هاتفتح ليا باب الخلو.

لطفى «شريف» في ملعبه وقال:

- المفروض مكتشف تعرف حاجة عن المغارة دي من الأصل ولا
تعرف حاجة عنى لكن إنت صاحبى من العضانة، ومقدرش أخبى
ملك حاجة، وهافصلك باب الخطوة.
- وتسيبنى فيه الليلة كلها.

- مش هاتسعمل تلتعد ربع ساعة يا «هشام»، على العموم
براحتك، أنا هاكون مستنيك في مكان قريب، لو حبيت تخرج في أي
وقت هاتلايني موجود.

- مش هاتسعمل ربع ساعة ليه؟ فاكركي هاخاف؟

ابتسم «شريف» وهو يُخرج من جيب سرواله مسبعة بيضاء
اللون تتكون من أربعين حبة، نُقش على كل حبة ثلاثة حروف
باللغة السريانية. قال وهو يرفع المسبعة ناحية وجهه ويلبس
إحدى حباتها:

- ذا إنت سمعت صوت واحد من الخدمة التي معايا جيت
حرق من كل حبة، أومال لو سمعت الهمن في المغارة هاتعمل إيه؟
نظر «هشام» للمسبعة بترقب، فقد كان له تجربة مرعبة معها
منذ أسبوعين. حرك «شريف» إحدى حبات المسبعة وهو يقول:

- فاكر لما مسكت السبعة دي من ورايا ولعبت فيها؟

تجهم وجه «هشام» وهو ينظر ليده اليمنى وبالتحديد اليد
حرق طفيف ببعض أصابعه، وقال:

- السبعة سغنت كأنها مولعة نار، وصوت في ودي بيومري
أسبها بسرعة.

- احمد رينا إني كنت قريب منك ولحقك.

ابتسم «هشام» وقال بغيت:

- بس يا أخي برهم إني أعرفك من زمان عمري ما قفيلت إن
ليك في موضوع الجن، ولا عمرك لمحت لي في كلامك حتى، شكك
حكيت كل حاجة بعد موضوع السبعة، يعني لو مكنت حصل الي
حصل عمرك ما كنت هاتقول.

ابتسم «شريف» وقال:

- ما أنا قلت لك يا صاحبي، مش مسموح لينا نعرف حد
بشكل مباشر إننا بتعامل في المسائل دي، والي ييكشف السر
الشيخ يتاعه بيعرف ويبخرج من الطريق على طول.

- بس انتوا مش طريق صوفي؟

- فينا الي من طريق صوفي وفينا الي هادي، شيفنا بيتنارنا
بنفسه أو حد فينا بيرجع له حد، لكننا بنمشي في طريق شبه
الطريق الصوفي، الفرق إننا منقدرش نسيب طريقنا.

- أنا فاكر إنك قلت لي على إنكم متقسمين على أربع أقسام،
ناس منكم بتخصص في الخدمات بتاعت الجن والعفاريت والتعامل
معهم، وقسم ثاني بتاع السحر هاين؟

قال «شريف»:

- القسم الثاني بتاع الأقسام والعهود والطلاسم والأقسام الروحانية.

والقسم الثالث ذا الأفلاك والنجوم.

- ذا الي هو حفظك اليوم وكذا؟

- لا يا أخي. ذا الي بيعرف التوقيعات المناسبة لفك السحر أو بدايته.

أو الأماكن الي مدفون فيها السحر أو مدفون فيها الكنوز والمقابر.

- والقسم الرابع؟ إنت مقولتليش عليه قبل كذا.

- ذا بقى درجة الدكتوراة، الي بيعرف كل الأقسام الثلاثة، وذا

الي بيتأهل إنه يكون الشيخ الجديد أو إنه يسافر في مكان ثاني

ويبدأ تكوين مجموعات تحتية زي طريقنا ذا.

- وانت طبعا في القسم الأول.. بتاع الجن والخدمات؟

- آه لكن أعرف كثير عن بقية الأقسام التالية، وعمايز أعيد كلامي

عليك، أنا مقدش أستخدم خدمات الجن الي معايا في أي أذى لأي

إنسان، حتى لو بغرض حماية إنسان ثاني، كل تعاملاتي مع الجن ويس.

- طب وكذا إنت استفدت إيه؟! لا حد يعرف حاجة عنك، ولا

تقدر تدافع عن نفسك لو حد ضريك.

- القوة مغرية يا «هشام»، لو النهارده أنا دافعت عن نفسي

قدام واحد بالاستعانة بالجن، يبقى بكرة هاعتدي عليه، وكذا

ميتقاش فيه عدل.

ضحك «هشام» بعصبية وقال:

- طب ما هو ذا جوهر العدالة في الدنيا.

تأهب «شريف» في مقعده، وحاجباه يتعقدان علامة على التركيز
ومهشام» يكمل كلامه:

- الإنسان يطلب العدالة في حالة واحدة؛ لما يفشل إنه يظلم
التي ظلمه.

- منطق فريب.. كذا أنت بتهدم فكرة الإنسان نفسه، كأنك
بتقول [أنا وأنت ممكن تقتل بعض فجأة بس اللي معنا إن كل
واحد فينا قوي.

- لا يا «شريف»، إحنا الناس الضعيفة، اللي بتضطر تعيش
بالفضيلة والأخلاق بينها وبين بعضها.

- طب ما أنا معايا سلطة أهو وخدمة من الجن، وعمري ما
أذيت حد بيها.

- دا لأن فيه سلطة أقوى منك بتحكمك، شيفك حذرك من
استخدام سلطتك، لأنه يقدر يظلمك لو ظلمت حد تاني.

- طب وشيفي مبيضرش حد ليه؟

- لأن أكيد فيه سلطة أكبر منه، كل حاكم فوقه حاكم تاني
بيحكمه، لحد ما توصل لربنا.

- منطلقك مخيف، أنا فريت في الاشتراكية والشيوعية وكلامك
مش زيه، لوعي تكون ملحد ياض؟

ضحك مهشام» وقال:

- مش للدرجة دي، الإلحاد ترف مش لبي زينا، إحنا قلوبنا هي
اللي البوصلة اللي بتوجهنا، وبوصلتنا بتقول لنا [أنا فيه إله حكيم
هابط في الآخرة معنى العدل اللي افتقدناه في الدنيا.

- كلامك الخير أوي يا «هشام»، كأنك كبرت فجأة بعد...

بتر «شريف» عبارته، لكن «هشام» قال بهدوء:

- بعد اللي عمله «النولو» فيا..

أشاح «شريف» بوجهه بعيداً كي لا تلاقى عيناه بعيني صديقه،
لكنه حاول أن يكسر حدة عبارته فقبال وهو يخرج سيجارة من
جيب سرواله ويقول مبتسماً:

- ما تخليني أشرب سيجارة، ومتخافش على صدرك، هانفع
الدخان جنب الشباك.

- الريحمة هاتلزيق في الأوضة، وأمي مش هاتصدق إنك إنت اللي
شربتھا.

- يا عم دي سيجارة فرط نفسي أشربها من الصبح.

نهض «شريف» من مقعده ووقف بالقرب من النافذة وهو
يخرج القذاحة من جيبه مبتسماً، ولكنه توقف قبل أن يشعلها
ونظر لهشام قائلاً:

- اومى تكون هايز تخش المغارة الليلة هلشان يبقى معاك
خدمة من الجن ولتتقم؟

لم يرد «هشام»، بل نهض من على طرف الفراش وهو يقول:

- يلاً بيديا نهمرك دلوقت، وإبقى أشرب سيجارتك وإحتا رايحين
جبل المنظم.



(2)

الساعة تقارب من التاسعة مساءً، والظلام يهبط على جبل المقطم في تلك الناحية لا يضيئه إلا ضوء القمر. تساق «شريف» ذلك المتحذر وخلفه «هشام» الذي ينتظر لخطواته جيداً فهو يرغب سكنه بجوار جبل المقطم إلا أنه لم يفكر ولا مرة في صعوده بتلك الطريقة الغريبة، وفي هذا الموقع، وما هو يتبع خطوات «شريف» بحماسة شديدة وقليل من العذر.

- قول لي يا «شريف».. إنت ليه وافقت تدخلني المغارة بتاعتكم دي من الأول؟

لم يسمع ردًا من «شريف» لنصف دقيقة وهو يصعد بحذر إحدى الصخور، لكنه قال بعد صعوده:

- إنت ليك أكل ولا بحلقة؟

سار «هشام» على خطاه قائلاً:

- إنت كل يوم بتطلع بالطريقة دي علشان تروح المغارة؟

- محدش فينا بيروح المغارة إلا مرة واحدة، لما يكون أهل علشان يبقى معاه خدمة من الجن بيدخل المغارة بعد ما ياخذ الإذن من الشيخ ويعمل خلوة من يوم لثلاث أيام، لو عرف يتواصل مع حد من الجن والتدريج إنه...

توقف عن الكلام وهو يشعر باحتلال توازنه، لكن «هشام» مد يده إليه ليستدّه، فكره «شريف» وأكمل كلامه وهو يصعد:

- زي ما كنت بقول لك، لو اللي دخل المغارة عرف يتواصل مع حد من الجن واقتنع إله اكتفى بعدد الجن اللي هاتواصل معاه بيخرج من المغارة ويرجع للشيخ علشان يعلمه إزاي يتعامل معاه.
- هو إنت ممكن يكون عندك عدد كبير من الجن في خدمتك؟

- أي عدد، لكن اللي زي عمره ما يقدر يتواصل مع أكثر من 100 واحد، هاعمل بيهم إيه هو أنا داخل حرباً

اقترب الاثنان من مبنى مهيب لم تتضح معالمه بالكامل، لكن «هشام» شعر أنه رآه أكثر من مرة. توقف هذا الأخير عن الصعود وقال لشريف:

- هاموت وأسألك على حاجة من ساعة ما عرفت إنك بتواصل مع الجن..

توقف «شريف» ونظر لهشام منتظراً السؤال.

- اوصوا يا «شريف» تكونوا من اللي بيدخلوا الحمام يستحموا باللين ويدوسوا على القرآن علشان تعملوا سحر؟

لم يبدُ على «شريف» أنه فهم عبارة «هشام» في البداية، لكنه ضحك ضحكة، ضحك بقوة حتى اهتز جسده وسقط على ركبتيه على الأرض وصوت قهقهاته يصنع صدى صوت في محيط الجبل.
شعر «هشام» بالمرج وهو يقول:

- بتضحك ليه يا بني؟

نهض «شريف» وهو يعود للسي. قائلاً من وسط بقايا ضحكاته:

- أصلي سمعت الحوار !! كثير أوي، معدهش بيعمل كذا يا
اسطى. فيه سحرة بيشتغلوا في الأعمال والأحجية والعاجات النافذة
دي مقابل فلوس، وساعات بيقي معاهم جني أو اثنين بالكثير
أوي، دول إحنا بنواجههم ونحرمهم من قدراتهم. طب هاقول لك
على حكاية.. من سنة كان فيه ساحر في المنيل مسمي نفسه «أبو
منذر المغربي»، وهو لا اسمه «أبو منذر» ولا هو من «المغرب»،
كان بيعمل إعلانات جلب الحبيب اللي بتيجي على التلفزيون دي،
الشيخ بتاعنا جمع اللي معاه في الطريق متخصصين في خدمات
الجن وكنت أنا ضمنهم، وسألنا مين فينا يحب يروح له أبو منذر
دا ويخلص لموضوع.

- تفتلوه؟؟

- يلا ما قلت لك مفيش قتل، كثير منا طلبوا يروحوا للراجل دا
وأنا منهم. الشيخ اختار واحد منا وللأسف مكنتش أنا، الشاب راح
لأبو منذر وقتل الجن اللي معاه وعمل حاجة اسمها الإهلاق عليه.

- إيه الإهلاق دا؟

- حاجة قهقهه إنه يستعدي جن تالي لغنمته أو إنه يقدر
يعمل سحر تاني.

- بالسهولة دي؟

- لا يا معلم، الإلهاق دا محتاج متابعة كل 90 يوم، لأن في يوم
من الأيام ممكن الساحر ■ يلاقى طريقة ويقفل الإلهاق.

- يعني انتوا هملتوا سحر للساحر؟

ابتسم «شريف» قائلاً:

- حاجة زي كدا.. وسبعان الله يا أخي «أبو منذر» دا له
الناس بتجيله وهو بينصب عليهم إنه ساحر، وشغال الله ينور.
اتحول من ساحر لنصاب.

- راجل زي دا كان لازم يموت.

توقف «شريف» عن الصعود ونظر لهشام للحظات بلا تعب
على قسماات وجهه، ثم عاد للصعود. بعد دقيقة وجد «شريف»
نفسه مر على مجموعة من شواهد المقابر صفراء اللون وعليها
لُحيت كلمات معيت معظمها.

- إنت جاييني المقابر يا «شريف»؟

- لا يا هم.. دا كام قبر كدا الدفن فيهم ناس من أهالي المقطم
زمان، أصلهم كانوا بيتباركوا في الزمن القديم بجبل المقطم، وخصوصاً
بالمكان دا.

كانا قد وصلا للمبنى الذي شعر «هشام» أنه رآه من قبل
وبالفعل أدرك من موقعه أنه كلما مر بطريق الأوتستراد لماه
بطرف هيبه، لكنه لم يعرف كنهه، لأنه كان على إحدى قمم جبل
للمقطم وقد حُفر في الصخر. وفعلًا بعدما وجد نفسه أمامه تأكد
من نظريته.

هذا مسجد حُر في صخور الجبل بشكل مهيب، كان من قام
 بهذا العمل الفني لا ينتمي للجنس البشري، مثانة طويلة لم يَز
 مثيلها من قبل في المساجد الأخرى، سور متهدم يحيط بساحة
 فارغة داخلها نُحتت الكثر من الأشياء كمحراب القبلة وبعض
 الكتابات التي لا تظهر في الظلام، كما أن هناك مدخلًا يفضي لقبة
 صغيرة لم يفهم «هشام» معنى وجودها، المشكلة أن ضوء القمر
 وحده لم يكن ليظهر له كل التفاصيل، لكن هذا المسجد في الليل
 يعطيك إيحاءً بالخوف لا الروحانية.

- ذا مسجد «شاهين الخلوئي»، محفور في الجبل من حوالي 500
 سنة، يتقابل مع شيطاناً ساعات في المكان ذا.
 هو «هشام» رأسه بلا معنى وهو ينظر حوله.
 - مين؟؟

جاء الصوت من الامكان، فقفر «هشام» للأعلى وجسده
 يرتعش، ضحك «شريف» وهو يخرجه قائلاً:
 - مطلقش.. ذا واحد من حراس الوادي، بيبقى موجود لما حد
 يكون فوق.

حاول «هشام» السيطرة على المفاعلة وهو يقول:

- وادي إيه وحد فوق إيه؟

تجاهله «شريف» وهو ينظر في أحد الاتجاهات قائلاً بصوت عالٍ:

- أنا «شريف».. جاني أبا بل الشيخ.

قالها وأخرج هاتفه المحمول من جيبه فالتفتا كشافي الإلهام
داخله لينير الطريق لنفسه وهو يقول:

- بين خطوات رجائك وإحنا طالعين دنوقت.

خطا «شريف» للأمام باتجاه مدخل صغير الحجم منحوت في
الجبل وهو يقول:

- أنا جانيك ههنا تقابل الشيخ قبل ما تروح للخسارة، هو
طلب يشوفك ههنا يسمع لي أدخلك.

- إنت بتسلمني تسليم أهالي!

قالها «هشام» وهو يخرج هاتفه المحمول ويظهر الكشال
ليخرج له شعاع الضوء مني الأرض الممتلئة بالأحجار والرمال
متبعًا خطوات «شريف» إلى المدخل المنحوت في الصخر، أو هكذا
بدأ له. دخل «شريف» من بوابة صغيرة وصعد سلمًا حجريًا لكن
«هشام» توقف لثوانٍ وقد وقعت عيناه على عبارة نُحتت بجانب
المدخل في الصخر، عبارة كأنها كُتبت منذ قرون، وجه كشال
الهاتف ناحيتها فعرف أنها آية قرآنية سمعها من قبل.

«يعلم خاتمة الأمين وما تغطي الصدور».

صعد السلم الحجري وهو يقول:

- إلا يعني إيه «خاتمة الأمين» دي اللي محفورة على المدخل؟

سمع صوت «شريف» يقول:

- والله ما أعرفه إلا أنت شوقتها في أنفي مدخل؟

- المدخل داه قبل ما أطلع السلم.

- مشوقتهاش قبل كدا.

السلم قديم لكن قوي، يصعد بشكل حلزوني معطيا شعورا
بفقدان الاتجاهات لمن يصعده. بعد دقيقة من الصعود وصلا لشبه
غرفة بذائذة كبيرة تطل على مساكن الناطم بالكامل. إضاءة القمر
تنير جزءا كبيرا من تلك الغرفة.

على الأرض جلس رجل في الشمس من العمر، يرتدي قميصا
وسروالا، يجلس مترعًا في ركن الغرفة، وأمامه طبقين صغيرين لم
يتبين «هشام» ما بهما.

حاول التدقيق في علامع الرجل ففشل، لم يلتقط من ملامحه إلا
أنه وسيم، وبشرته تقترب من اللون الأسمر، أو هكذا تخيله فالقمر
لا يلقي بضوئه عليه.

أخلق «شريف» ضوء كشاف الهاتف المحمول، وتبعه «هشام» في
ذلك وهما يتقدمان إلى جانب الرجل.

- سلام عليكم يا شيخنا، أعرفك بصاحبي «هشام» اللي قلت
لحضرتك عليه..

لقدم «هشام» ومد يده ليصافح الشيخ. شعر «هشام» ببرودة
عجيبة في يد الشيخ أضافت إجلالا عليه، لكن الشيخ لم يترك يد
«هشام» بل أمسكها بيده اليمنى ووضع بها شيئا بيده اليسرى.

سرت قشعريرة في مؤخرة عنق «هشام» وهو يقرب يده من
حيثه ليحرف ما بداخلها فوجدتها.

- ضوبة لب علفان تفزقز وتسلي وقتك.

قال الشيخ تلك العبارة وهو يعطي «شريف» هو الآخر حلقه
من اللب بيده. جلس الاثنان أمام الشيخ الذي قال:

- ابقوا ارموا القشر في الطبق دا.

شعر «هشام» بأنه يشاهد فيلمًا دراميًا تخلله مشهد كوميدى
فيما، لدرجة تجعلك تفكر هل يجب أن أضحك أم أنتظر هلني
أجد معنى آخر للمشهد.

- تفيلت إلك هاتقابل شيخ ليه هيبة وطة، أو على أقل
التوقعات سيكونش قاصد في مكان زي دا بيقزقز لب؟

لم يجد «هشام» ما يجيب به على كلمات الشيخ الذي قال:

- «شريف» رشحك علفان تكون معانا، بس أنا رفضت لأسباب
لخصني.

- وأنا مطلبتش أنضم ليكم.

ابتسم الشيخ ووضح بعض اللب في فمه وهو يقول:

- «شريف» بيعبك وكان عايز ينفذ لك طلبك، وأنا وافقت لما
لقيته مصمم على كذا. لكن ممكن يا «هشام» تقول لي إنت عايز
تدخل مغارة الخلوقة ليه؟

- عايز أهوى الجن.

قالت «هشام» بتلقائية وبصدق، فوجد الشيخ يفتح بوجهه
لينظر عبر النافذة ويقول بصوت هادئ رخيماً:

- من عارف كل الناس متعممة ليه إنها تشوف الجن! ياما
قابلت ناس زيك طلبت تشوف الجن وتعامل معاه، وأول بس ما
يحصوا إنه موجود معاهم يغمى عليهم.
- بس أنا من زيه.

لم ينظر له الشيخ وكأنه يطلب منه بضميه أن يكمل، فأكمل
قائلاً:

- اللي يقول إنه عايز يشوف الجن ياما بيكون من مصدق أو
فاكر نفسه جروء، ودول بيكونوا أكثر عرضة للصدمة، أما أنا فخايف
وعامل حساب لحظة زي دي.

نظر الشيخ له بطرف عينه وقال:

- تعرف إن المصريين القدماء كانوا بيقدسوا جبل المقطم، معظم
الأديان ليها حكاية مع الجبل ده ممكن علشان دايماً قريب من
العقار لكن اللي يدخله يحس إنه العزل عن الدنيا، كثير من
الزهاد والعباد سابوا الدنيا وقعدوا في الجبل يتعبدوا في مغاراته، لا
خافوا من وحوش ولا حيات ولا عتارب.. ولا بشر ولا جن، علشان
كنا كان الجن تلاميذهم وخدامهم.

توقف الشيخ عن الكلام وتناول بضغ حبات من اللب بشكل
قطع الحالة الروحانية التي يحاول أن يتصوره بها «هشام».

للمغارة التي إنت هاتروحها دي يا «هشام» موجودة من زمان أوي، كانت محراب لواحد من الزهاد اسمه «طاهر بن ميمون المصري»، بيخلف فيها عالم البشر والجن، بيسمعوا بعض بوضوح، ممكن تاتلي فيها مرادك، ويمكن تتلذي، إنت مش واحد من طريق، فملكش هندي حماية، ممكن لما تخشها توتاج، ويمكن توصل لبداية طريقك.. أو نهايته.

أخرج الشيخ قشر اللب ووضعته في الطبق الثاني دون أن ينظر لهما. ران الصمت فترة على الجالسين إلى أن قال «هشام»:

- قهل ما أطلع لك سمعت صوت يقول «مين»، «شريف» قال لي إنه حارس الحارس دا من البشر ولأ من الجن؟

- إنت هايزه يكون إيه؛ راجل هادي فقير بتديله قرشين كل شهر علشان ياخد باله من المكان؟ ولأ مارد من الجن من خلعتي الشخصية ومعاه أتباع كتير بيعرسوا المكان من الجن والبشر؟
- مش عارف هايز إيه.

- بالعكس، طريقتك في الكلام معايا بتقول إنك عارف اللي إنت هايزه كويس، على العموم تقدر تروح مع «شريف» للمغارة دلوقت، لكن مش مسموح ليك إنك تقعد أكثر من ليلة واحدة. «شريف» هايدخلك لجوه ويسيبك وممنوع عليه يدخل تالي، إنت اللي هاتخرج له لما تزهي.

هنا قال «شريف» لأول مرة منذ بداية الحوار:

- إنا هاتج له باب الخلوة جوه لمشاره علشان يشوفها بس.

نظر الشيخ لشریف وابتسم ابتسامة بلا معنى، فتدحج «هشام» ونهض. تبعه «شریف» قائلاً:

- هاستاذك يا شيخ؟

- بكرة في نفس التوقيت هاتلقيني هنا لو احببتي.

هز «شریف» رأسه بأدب وهو يلقي السلام على الشيخ ويهادر، و«هشام» يتبعه بعدما أخرج هاتفه المحمول وأضاء الكشاف. بمجرد أن بدأ الاثنان في نزول أولى درجات السلم سمعا صوت الشيخ يأتيهما من بعيد قائلاً:

- ألي هاتصوفه الليلة هايحدد على أساسه مصير حياتك، وإنت عاقل.. بلاش تفكر فلف.

توقف «هشام» للحظة وابتسم دون أن ينظر وراءه، ثم أكمل هبوط درجات السلم.

خرجا من نفس المدخل الذي دخلا منه، سارا - دون أن يتكلم أحدهما للآخر - وسط الجبال والحواف الصخرية التي تنذر بالانزلاق من يقرب منها أكثر من اللازم. وصلا إلى منطقة صخرية تامة فتوقف «شریف» وهو يقول:

- أهلاً بياك في «وادي المستضعفين».

تأمل «هشام» المكان الصامت المظلم من حوله وقال:

- إنت بتهزرا مستضعفين إيه؟

- بتكلم بجد، المنطقة دي كلها اسمها القديم «وادي المستضعفين»
ومتسألينش عن سبب التسمية، فكرر في الصبب زي ما تحب ولت
جوه الخلوة.

- وهي قن الخلوة دي؟

أشار «شريف» لبروز صغري يفرج من هضبة أمامهما، وقال:

- أدبي باب الخلوة أهو.

تأمل «هشام» في البروز الصغري فلم ير أي باب.

- متقوليش يا «شريف» إنك هاتقول الفتح يا سمسم والجهو «اا

- بالطبط يا صاحبي.

قال «شريف» عبارته وهو ينظر لأعلى ويقول:

- «بسم الله الذي له اسم لا يُنسَى، ونور لا يُطفأ، وعرش لا
يُحول، ومُلْك لا يزول، وكرمي لا يتعرك، أعوذني على سيد وادي
المستضعفين بألا يتعرض لي أو لخدمتي، أقسمت عليك يا سيد
ميطرون يا ملك الأقباح والأرياح التي تحت عرش الملك الجبار،
يعق الاسم المكتوب بالنور على عربة الطاعة التي اختصك بها
الله فاطاع لك الأرواح والأقباح، أن تأمر رحمةائيل بالزول على
سيد هذا الوادي وزجره هو وخدمه على قضاء حاجتي، وفتح باب
خلوتي، بقسم الأسماء المكتوبة على حرم سليمان في الهيكل القديم،
وإنه نقسم لو تعلمون عظيم».

لهتزت الأرض من تحت أقدام «هشام» الذي نظر حوله بهوف
يلاحظ فجأة أن البروز الصخري يفتح للداخل.

أخرج «شريف» مسبحة وهو يقول:

- أنا هاسيب الخدمة بتاعتي هنا عقبال ما أوصلك لجوه
وأرجع ثاني.

ألقى مسبحته على الأرض بعدم اكتراث ودخل من الباب المفتوح
للمظلم و«هشام» يمد بخطواته لينجسه وهو يحاول في نفس الوقت
السيطرة على مثانته كي لا تخونه من الرعب.

دخلا للظلام، لكن كشاف الهاتف المحمول الخاص بشريف أضاء
له الطريق للداخل. كانت المغارة أضيق مما تخيلها «هشام»، عبارة
عن ممر قصير يتكون من بضعة أمتار، ينتهي بكتابات لم يستطع
قراءتها بسبب الخوف وعدم توفر الإضاء الكافية. عند نهاية الممر
متحدّر هيل لأسفل بزاوية 45 درجة، لكن قبل النزول للمنحدر
استطاع قراءة آية قرآنية محفورة بطريقة بارزة قبل المنحدر:
«لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديد».

نزل «شريف» للمنحدر وهو يقول بصوت عالٍ:

- أنا «شريف الجندي»، كنت عندكم من 3 سنين والتعرفت على
خدمتي هنا، خدمتي من قبيلة «بنو الجندب» ورئيسهم اسمه
«ابن زوعير». معايا صاحبني «هشام» هايلعد معاكم ليلة.

نزل «هشام» وزاده المنعذر، لكن «شريف» توقف وأشار إليهم
هو الآخر بالتوقف وقال صارحاً:

- صاحبي هايز يقضي ليلة معاكم يعرف عنكم أكثر، أنا علمت
بره الخلوة، لكن طالب منكم الأمان، لا أذية ليه ولا خوف.

لم يحدث شيء، فقال «شريف» بنفس الصوت العالي:

- ادوني علامة الحماية بتاعت الخلوة.

لم يحدث أي شيء. نظر «شريف» للأرض بغيبة أمل وهو يتهدد
«هشام» يحدد الله داخله أن الموضوع فيما يبدو في طريقه للفشل
لكن حياة أضيئت للمغارة بضوء أخضر جعل «هشام» يشفق فزماً
ضوء لا مصدر مرئي له، أظهر لهشام أنه يقف عند منعذر نهايته
ساحة مربعة تتدلى الصغور عليها في شكل رؤوس مدبية، وعلى أرض
الساحة عشر زجاجات من الماء ممبلة، وصندوق خشبي وسجادة
صلاة مطوية.

ابتسم «شريف» وهو يدخل لتلك الساحة الصغيرة ويقول:

- الحمد لله كذا أنت في الأمان. بص يا سيدي.. المفروض كنا
نجيب أكلك وشريك اللي هايكفيك الأيام الجاية لو هاتعمل خلوة
بس إنت كذا كذا هاتقعد كام ساعة، علشان كذا هاتلاقى للمية
اللي هاتشرب منها وتتوفى لو تحب. والصندوق دا فيه ميش
ناشف ومكسرات كثير ممكن تاكل منهم لو جعت، ودي للصلاة
لو نويت تتوب يا أسطى.

- إنت هاتصبري دلوقت؟

- متقلقش، أنا هاقعد بروه بـ100 متر أتابعك، وانت الوقت
إلي تحب تخرج فيه مش هاتعمل حاجة إلا إلك تقرب من باب
الخروج هاتلاقيه بيتفتح لوحده.

- طب هو أنا المفروض أعمل حاجة معينة؟

وضع «شريف» هاتفه المحمول في جيبه وقال مبتسمًا:

- المفروض أصيبك هنا وبس، لكن أنا هافتح ليك الخلوة
الحقيقية، علشان تشوف وتسمع. المكان هنا عامل زي مطار دولي،
كل الطائرات من مطارات العالم بتنزل فيه ترانزيت، وأنا دلوقت
هاعملك فتح رؤيا علشان تقدر تتواصل مع أي جن بيمر بالمكان
دا.

- وهما بيمروا هنا ليه؟ المغارة ضيقة جدًا.

- لا المغارة أكبر من اللي إنت ممكن تتخيله، هي لسة ممتدة
جوه الجبل، بس عمرها ما بتتفتح، وبصراحة الشيخ عقايش بلية
المغارة جواها إيه وإزاي بتدخلها، دا مكان الخلوة علشان نكتسب
خدمة جن وبس.

خطا «هشام» بعذر لداخل الساحة وهو يقول:

- والنور الأخضر ■ جاي منين؟

- بلاش تعرف تفاصيل هاتخوفك وبس، إنت تقعد تروح دلوقت

وأنا صانعك الرؤيا وأسيبك، وانت أول ما تحب تخرج إن شاء الله بعد دقيقة واحدة اكل على الله وأخرج.

أنهى مبارته وأخفض عينيه وهو يرفع يده اليمنى عاليًا وهو يقول صاركها:

- «سبح سبح رب الملائكة والروح، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، انصتوا الباب بيننا وبينكم بالمحبة والطاعة والصلاح، على من جلس بهذا المجلس أن يتحدث بحديث البشر، ويفهم بفهمهم، ويدرك بعقلهم، ويجيب دعواتنا بلطف وصفاء. بسم الله الرحمن الرحيم، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير. أسرموا بأنواركم البهية وشبهكم السنية وهممكم العلية. لا زلتم مقربين وبأنوار الجلال متعوقين ومن مكر البشر آمين. آمين آمين آمين».

احصرت يد «شريف» المرفوعة والتي هوى بها هذا الأخير يضرب بها أرض الساحة بجانب «هشام» الذي تراجع خطوة للخلف غير مصدق ما رآه بيد صديقه. ابتسم «شريف» وأعطى ظهره لـ «هشام» صاعدًا المتحدر وهو يقول:

- أنا مستعيك بروه يا صاحبي، اللي إنت تعلم بيه بيحصل دلوقت، على قد ما تقدر استفيد منه. سلام.

الخطى «شريف» من عين «هشام» الذي طرأ على رأسه خاطرة: كيف سيتنفس إن انطلق باب المغارة عليه؟ سمع صوت الباب

الصخري يُغلق، والأرض تهتز من تحت قدميه. فذر أن هناك
فتحات ما للتنفس لم يرها.

سمع صوتاً لأقدام تتحرك أعلى المنحدر، فقال بشك:

- «شريف».. إلت لسه مغرجهتش؟؟؟

لم يجبه «شريف»، بل سمع صوت الأقدام تقترب من المنحدر
أكثر. صوت ضجيج يقترب من ضجيج الأفاعي يسمعه. رأى من أعلى
المنحدر طرفاً لرأس أسود اللون يطل عليه كأنه يراقبه بعذر.

(3)

الساعة تقرب من الرابعة فجراً أمام المغارة المغلقة الصامتة.
من يقف بعيداً ليرى المشهد سيصاب بصدمة شديدة؛ فبجانب
المغارة همة متر جلس «شريف» على الأرض مستنداً بظهره إلى
تلة صخرية صغيرة، مغمضاً عينيه وغارقاً في سبات طويل. صدمة
من ير هذا المشهد ليست في نوم «شريف»، بل من يعيطون به،
خمسة أنفار من الجن قصار القامة، لا شعر في أجسادهم، رؤوسهم
متضخمة وأيديهم طويلة بثلاثة أصابع، وعين كل منهم سوداء
تماماً، لا يتحركون كأنهم تماثيل منحوتة على أوضاع خاصة؛ فأحدهم
يمسك ثعباناً صغير الحجم ويرفعه بيده للأعلى، والثعبان يتلوى
بعنف. واثنان، أحدهما يمسك بعقرب ضخم يتحرك بياس ليغلت
من تلك اليد، والآخر يقبض على عقرب صغير الحجم استسلم له
وأصبح هادئاً.

سعل «شريف» أثناء نومه جراء الهواء البارد الذي تسرب لرتبه
طوال فترة نومه ففتح عينيه بتثاقل وهو ينظر حوله لخدمته من
الجن ويقول بتكاسل:

- هو أنا مت كثير؟

سمع صوتاً في أذنيه يتحدث، فقال:

- طرب ارموا العنارب والتعبان دا بعيد عن هنا، أنا صعبت

خلاص.

اختفى الجن من حوله، وألقيت الهوام بعيداً في الهواء، بينما
ثبي «حريف» جسده للأمام قليلاً وهو ينظر في اتجاه مسجد
«شاهين الخلوتي»، وقال:

- تفكر الشيخ لسه هناك لحد دلوقت؟

استمع لرجل من خدمته يحدثه في أذنه ثم قال:

- حاسس كانه باصص مليا دلوقت من مكانه.. بيراقبني.

نظر لساعة يده قائلاً:

- غريبة إن «هشام» الآخر كل دا جوه!

سمع الصوت في أذنه فرد عليه قائلاً:

- أيسوة أنا كنت عايز «هشام» يدخل الخلوة، ونفسي يبقى
معاه خدمة من الجان، علشان ياخذ حقه من اللي ضيعه هو
وأخته. تعرف إلي كنت معجب بـ«ريم» أخته من زمان، بس صعب
أظهر في الصورة دلوقت. «ريم» حملت ثقيل على اللي هاربط بيها،
وأنا ممنوع أستخدمكم في الأذى فمش هالدر أجيب حقه، وجودي
هايكون زي عدمه.

شعر بامتزاز الأرض من تحته فتهض وهو يقول:

- «هشام» خارج خلاص، شكله مقدرش يتواصل مع جن علشان

يخدمه.

لهض من رقده وهو يشاهد من بعيد الباب الضخري يُفتح
لداخل المغارة، و«هشام» يخرج منها متصلب الأطراف ينظر حوله
حتى وقعت عيناه على «شريف» الذي نوح له. قال «هشام»
بصوت عالٍ:

- متلربش مني يا «شريف».

كاد «شريف» يتحرك، لكنه توقف مذهولاً من تلك العبارة. نظر
لجانبه الأيسر ليعتله من الجن يقول:

- مال «هشام»؟

جاءه الصوت في أذنيه من خدمته يقولون إلهم محبوبون، لا
يرون شيئاً. نظر «شريف» له «هشام» وبدأ يلاحظه لأول مرة. لقد
امتلاً قوة وثباتاً وهيبة. رفع «شريف» صوته قائلاً:

- مالك يا ابني؟؟ إيه اللي حصل جوه؟

- بكرة تتكلم، أنا عارف طريقتي من هنا. سلام.

قالها «هشام» بصوتٍ بارد لتخلله قوة، ثم اتجه للظلام واختفى.
قال «شريف» في نفسه إنه ولا بد قد اكتسب خدماً من الجن، لكن
أي عدم هؤلاء الذين استطاعوا حجب الرؤية عن خدمه هو شخصياً؟
شعر باعتزازة أخرى في الأرض فنظر لباب المغارة ليجده يُطلق
من تلقاء نفسه، كان يجب أن يفلقه بعزيمة أخرى يقرأها أمامه،
كيف أخلق من تلقاء نفسه بهذه الطريقة؟



استيقظت «ريم» من نومها صباحًا على رائحة غريبة، ليست رائحة غار البوتجان، بل أقل حدة، لكنها خائفة برغم كل شيء. نهضت من على الفراش تحاول تتبع الرائحة. خرجت إلى صالة الشقة فوجدت والدتها تجلس أمام التلفزيون وهي تفشر حبة بطاطس.

- صباح الخير يا «ريم»، التي شامة حافة غريبة يا بتعي ولا أنا مناخيري باظلت؟

قالت الأم العبارة السابقة وهي تنظر لـ«ريم» التي قالت مندهشة:

- أنا صاحبة على الريحه دي، طب التي اتأكدتي إلها مش من للطبخ؟

- الريحه في الشقة بس مش عارفة أحدد حاية منين، ساعات بحس إنها راحت وساعات ألقاها رجعت.

- طب هو «هشام» نزل الكلية النهارده ولا لسة جوه؟

- المفروض كان ينزل النهارده، بس دخلت عليه من ساعة لقيعه لاعد مسهم وسرحان في أوضعه.

اتجهت «ريم» لغرفة نوم شقيقها، وطرقت باب الغرفة فلم يهبها أحد. طرقت مرة ثانية وثالثة حتى قالت:

- أنا داخله يا «هشام».

فتحت الباب لتجد شقيقها واقفاً أمام النافذة ينظر خصاصها إلى

الشارع. شعرت أن مصدر الرائحة هي هذه الغرفة، لأنها أصبحت
أوضح وأكثر تشاؤمًا.

- إنت مش رايح الكلية النهارده؟

نظر لها «هشام» ببطء. فكرت أنه تغير فجأة، كأنه شخص
آخر. نظراته أصبحت أكثر برودة وتعديًا و.. وغضبًا. عاود النظر
لنصاص النافذة وقال بصوت جهودي:

- هو «التولو» مش قاعد قدام بيتهم ليه زي كل يوم؟

تراجعت هي خطوة للوراء مذهلة، فهو لم يذكر اسمه ولا مرة
منذ ما حدث معها. الاثنان يتجلبان الحديث عن هذا الشخص
فيما الذي كسر تلك القاعدة الآن؟

- ما لك يا «هشام»؟ إنت فيه حاجة مضايقات؟

قالتها وهي تقترب منه فقال هو دون أن ينتظر لها:

- أنا حاسس باللي انتي فيه، متقلقيش كل حاجة هاتحل.

أنهى عبارته وفادر الغرفة دون كلمة، حتى أنها وقفت لفاحشه
وهو يعبر الصالة ويخرج من الشقة دون حتى أن تعطك فرصة له
الفعل، لكنها جرت تلقى خلف النافذة وجدته يخرج من باب المنزل
ويتوقف عند البقالة القريبة من المنزل ويتكلم مع صاحبها الذي
ظهرت عليه ملامح الدهشة وهو يشير بيده ناحية منزل «التولو».
هل يسأله «هشام» عن سبب عدم تواجد «التولو» في هذا
التوقيت؟ نظر «هشام» للمنزل لفترة بمرور، ثم عاد للمنزل ثانية
ثوانٍ وسمعت صوت المفتاح يدخل مزلاج باب الشقة، ويدخل

«هشام» بنفس الهدوء الغريب ويعود للغرفة ويقف أمام النافذة.

«هشام».. «أبدأت أخاف، أنت هايز تعمل إيه؟»

كأنه لم يسمع سؤالها وهو يقول بهدوء:

«التونو» بايت بره بيته من إمبرج، أكيد هايرجع النهارده.

غادرت «ريم» الغرفة وأهلقتها خلفها ولم تتفلس بعد من

حالة الصدمة.



داخل ميكروبياص، جلس «شريف» على المقعد المجاور للسائق

وهو يتصل للمرة العاشرة بهشام الذي يرفض الإجابة على هاتفه

للمحمول. ما الذي حدث له أمس داخل الخلوة جعله يرفض أن

يتخادرا جيل للمقطم معًا؟ ولماذا لا يرد على هاتفه منذ صباح هذا

اليوم؟ هل اكتسب خدمة من الجن أخبرته شيئًا عن «شريف»؟

هل عرف معًا أن هذا الأخير يكن الإجاب ل«ريم»؟

هذا المخاطر هو ما أقلقته، لذلك عندما فشل في الوصول إليه عن

طريق الهاتف قرر الذهاب لمنزله، نظر لساعة يده فوجدتها تخطت

الواحدة ظهرًا بقليل. كاد يحاول الاتصال به مرة أخيرة يائسة، لكن

جاءه اتصال من هاتف والده «هشام» للمحمول، فهي تحتفظ

برقم هاتفه منذ زمن طويل. رد على الهاتف فلم يأتبه الصوت الذي

توقعه، بل جاءه صوت «ريم» تتكلم بصوت خافت جدًا.

- «شريف».. أنا «ريم».

- إزيك؟ مال صوتك واطي كدا ليه؟

- أنا بتكلم من أوفتي هاشان محدش يسمعني، ممكن أسأله

سؤال؟

- خير؟

- هو إيه اللي حصل إمبارح؟

بدأ القلق يداعب قلبه وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا ويجيبها:

- مش فاهم سؤالك!

- إنت و«هشام» خرجتوا إمبارح بالليل، والنهارده «هشام»

بيتعامل بشكل غريب. ببسأل أسئلة عمره ما سألها، وبصاته

غريبة، حتى ريحة الأوضة بتاعته غريبة كـ...

قاطعها هنا وهو يقول متلهفًا:

- إيه حكاية الريحة دي؟

- مش عارفة! من سامة ما صعبت وأنا شامة ريحة غريبة، ولما

دخلت أوضته لقيت الريحة قوية، كأنها ريحة كبريت.

استغرق لحظات كأنه يتذكر شيئًا ما، شهق بعدها واتسعت

عيناه وهو يطلب من سائق الميكروباس التوقف بسرعة، وحس

قبل أن يتوقف قفز هو من الميكروباس وهو يعبر الطريق ويقول

له «ريم» بعصية:

- أنا جاي عليكم حالًا، بس بلاش تتعاملني مع «هشام» مؤلفنا

لحد ما لوصلكم.

أطلق المكائنة وهو يوقف «تاكسي» ويطلب منه أن يوصله
لأقرب نقطة من جبل المقطم يستطيع من عندها الصعود لمسجد
«صاهين الخلوتي».



والحة الكبرى ترداد في الشقة، ومعها يزداد قلق «ريم» أكثر
فاكثر وهي جالسة في هرفتها. فكرت في «هشام» وفيما سيفهم
نفسه فيه لو أعاد العراك مع «النونو». لمست بينها أعلى صدرها
تتسلس الجرح القديم الذي ما زال ظاهراً بعد خياطته. لا مال
كل لإجراء عمليات تجميل الآن وفي كل الأحوال لا توجد جراحات
تجميل لجروح القهر والذل.

مع الوقت شعرت أنها اعتادت تلك الواقعة، فكرت في ذلك
وهي تفتح باب هرفتها وتوجه للحمام، قبل أن تصل لباب الحمام
وجدته مفتوحاً ومضاءً، وداخله يقف «هشام» أمام مرآة الحمام
معتيلاً ظهره له. عرفته من ظهره، لكنها توقفت غير مدركة لما
لراه في مرآة الحمام نفسها، بدلاً من إنعكاس صورة شقيقها الذي
تعرفه وجدت انعكاساً لكائن أصفر اللون بالكامل وجهه يشبه وجه
الفلنيز المجهد، وجلد جسده معروق تبرز منه عروق خضمة، ومن
خلفه يظهر ذيل لهذا الكائن يواضع بيننا ويساراً.

كنت صرختها بينها و«هشام» يستدير لهذا ثم ينظر بطرف
عينيه في المرآة، ويعاود النظر إليها مبتسمًا.



بعدما وصل «شريف» لمسجد «شاهين الخلوئي» قدّر أن فيط
لن يتواجد الآن في مكانه، جرى مهرولاً إلى موضح الخلوة حتى
وصلها. فرك عينيه وهو يتأكد من باب المغارة الصغير، ما الذي
فتحه؟ وفي هذا التوقيت؟ دخل المغارة بحذر يتلفت حوله في الممر.
هبط المنتعز داخل المغارة متوقفاً أن يرى ساحة الخلوة، لكنه
وجد شيئاً جديداً، أحد حوائط الساحة غير موجود. لا ضوء الآن
في المغارة إلا من خلال شعاع صغير من الشمس يأتي من الخارج،
لكنه كان كافياً ليرى أن تلك الفصحة تؤدي لممر آخر.

أخرج هاتفه المحمول وطلب رقم هاتف «هشام» سمع رنين
الهاتف يأتي من ناحية الممر، غطا لداخله يقدم قدماً ويؤخر
الأخرى. بدأ أن نهاية الممر عبارة عن ظلام تام يتخلله القليل من
الضوء. حُيِّل إليه أن رجلاً يقف وسط ذلك الظلام. سمع صوت
الرجل يتحدث.

- كنت عايز «هشام» يبقى معاه خدمة علشان ينتقم من
اللي أذاه هو وأخته.. قلت لك خليه يقعد في المغارة بس لكن ما
تفعلوش الرؤيا، لكن شهوتك اتحكمت فيك، شهوة القوا.

صُغق «شريف» من صوت ذلك الرجل، إنه الشيخ الذي أكمل
قوله:

- إنت سبت السبحة بتاعتك قدامه علشان يستغفمها وخلص
الجن بتاعتك تكلمه، علشان تحفره إنه يدخل عالم الجن زيك،
اقترب «شريف» أكثر من الشيخ فوجد أن هناك ساحة أخرى
وراءه ومضامة بضوء أخضر خافت، قال «شريف»:

أخت «هشام» تقول إنها بتضم ريمة الكبرى، متى ممكن
تكون الأسطورة حقيقة؟

أنا حذرتكم من إن المغارة مليانة بالأسرار، ومنها «حمام
ولدي المستطعين» اللي حبسه «طاهر بن ميمون» جوه المغارة،
و«هشام» إمبراح قدر يتواصل معاه ويفتح باب زلزالته.

ابتعد الشيخ جانبًا بعركة مسرحية لتظهر جثة ملقاة على الأرض
من وراله، وبركة كبيرة من الدماء تحيط بها. دلق «شريف» في
الجنة وهو يقرب منها ويجثو على ركبته، لكنه التفض في موضعه
وهو يرى جثة صديقه «هشام».



أنا مش «هشام» يا «ريم».. مايزك متخافيش مني أنا هنا
هشامك.

قالها «هشام» وهو يخرج من الحمام و«ريم» تتراجع بظهرها
إلى الصالة، وتشير بيدها اليسرى إليه وهي لا تلتوى على الكلام،
وهيهاها تدمعان من الخوف. خرجت الأم من المطبخ فنظرت
إلى «ريم» متسائلة، لكن «هشام» بجرود ذهب لأمه ووضع يده
اليمنى على رأسها فأغشى عليها.

جرت «ريم» لغرفة «هشام»، لكنها فوجئت ب«هشام» نفسه
وصل لغرفته قبل أن تدخلها. كادت تصطدم به لكنه مد يده اليمنى
يلمس رأسها فتكومت هي الأخرى على الأرض وهو يقول بحزن:
أنا آسف.

ذهب ليقف عند النافذة يهتو بهرب الـ خارج.

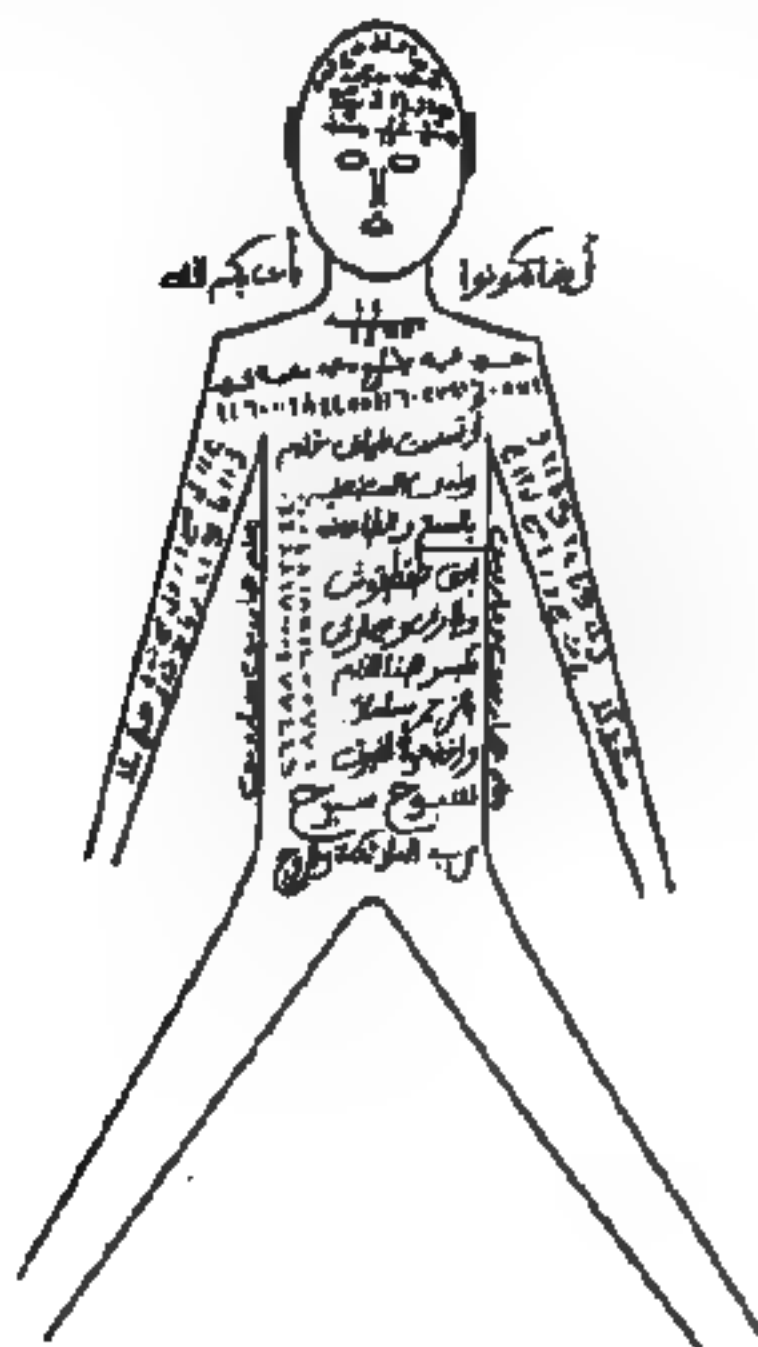


جثة هشام العارية الملقاة مثيرة للرعب والشفقة من يراها
حينها مغمضتان كأنه نائم بسلام، برغم وجهه أزرق اللون من قلة
الدماء. هبطت دموع «حريف» على الجثة وصوت الشيخ يتردد
من خلفه قائلا:

- «هشام» قدر يتواصل إمبراح مع «خادم» وادي المستنطين،
ويوصل لسجنه، والحر الي مش كتع هارفينه إن تحرير الخادم
دا محتاج دم كتع أوي، أكثر من الي جسم بشري واحد يتحمل.
طريقة موت «هشام» بتقول إنه متعثرش علشان يحزر الخادم
هو. حاول يساعد بدمه، لحد ما جاله هبوط ومقدرش يوقف
لحيف الشريان الي فتحه بنفسه.

نظر «حريف» من وسط دموعه إلى يد «هشام» اليمى
فوجد فتحتين عند شريانين. تحرك بعينيه في أرض الغرفة فوجد أن
الأرض منسوجة بطريقة بارزة على هيئة أشكال هندسية، ووسط
تلك الجوزات الهندسية بقايا دماء «هشام» التي أسالها لتصل إلى
نهاية الساحة. في تلك البقعة العديد من السلاسل البيضاء المنقوش
عليها طلسم باللون الأسود، تتصل أطراف تلك السلاسل بالنقوش
البارزة في الأرض، والطرف الآخر مدغم حيث كان يقف الخادم. نظر
«حريف» للشيخ وتهم وجهه فجأة وهو يقول بصوت منسوجة
- كنت بتقول لنا زمان إن الخادم دا مش حقيقي وإنها حكاية
من مارد من الجن أقوى من كل خدماء، علامة وجوده في مكان

هي راحة الكبريت، المأورد ذا موجود ذلوقت في بيت دهشام.
 أخرج الشيخ من جيبه قلم حبر من النوع الذي يملأ من الدواة.
 وأعطاه لشریف، ثم أخرج ورقة صغيرة مطوية من جيبه ففعلها
 ووضعها في يده «شریف» الذي مسح بقايا دمومه وهو يدقق فيها،
 رسمة غير دقيقة لإنسان وحوله امتلأت طلائع والاسم وأرقام
 وكلمات سرانية.



- كل اللي علمتهولك يا «شريف» او علمته لغيرك مش هاتقدر
يفارقك تتغلب على المارد ده الطلسم دا هو الوحيد اللي ورثته من
شيوخه علشان لو اتحرر في يوم من الأيام ممكن السيطرة عليه

- سيطرة عليه بس؟

- محدش قبل كذا قدر يعرف طريقة لقتله، العمل الوحيد إنه
تسحب دم بالقلم اللي معاك دا وترسم الطلسم على ورقة، ولما
تحرق الورقة هابقى قدامك دقائق هايكون فيها ضعيف تقدر
تخلي خدمتك من الجن تنقله المغارة هنا تاني، وأنا هاستنهم
علشان نرجع نسجنه.

- بس هاعرف مكانه إزاي لما يضعف؟

- لازم تكون شايفه قدامك لأن مفيش جن بيشفه وهو في كامل
قوته.

نظر «شريف» لجهة صديقه، ثم رفع القلم وهو يقربه من
يده، إلا أن الشيخ قال وهو يغادر الساحة:

- إمبارح بعد ما قعدت معاك إنت و«هشام» أنا قلت كلمة ولقوا
ماشيين بس إنت التكرتني بكلم صاحبك، بس الكلام كان ليك إنت
عند «شريف» حاجبيه معاوّلوا التذكر، لكن الشيخ قال له
مذكّرًا وهو يسير مبتعدًا:

- قلت: «ألي هاتشوفه الليلة هاتحدد على أساسه مصير حياته»،
وانت عاقل، بلاش تختار غلط». أنهى وقت الاختيار الحقيقي يا

«شريف» إليك تختار صح، الاعتبار دا بتاعك مش بتاع «هشام».



وقف «هشام» أمام النافذة ينظر بين خصاص الثلاثة على
الشارع حتى رأى «شريف» يأتي مهرولاً ليدخل باب المنزل، رفع
«هشام» يده للأعلى قليلاً وهو يشير ناحية باب الشقة الذي انفتح
مزاجه من تلقاء نفسه. بعد ثوانٍ دخل «شريف» الشقة مرتبكاً
وهو يحمل قداحته وورقة بيضاء كبيرة مطوية. دخل للصالة ينظر
حوله حتى رأى «هشام» يقف في غرفة النوم معطياً ظهره له. رفع
الورقة للأعلى قليلاً وكاد يشعل القداحة لكن توقف وهو يقول:

- إنت أخرب حد من الجن أخوفه.

لم يلتفت «هشام» له، لكنه قال:

- «هشام» كان عارف إنك بتحب «ريم»، وإنك ساعدته يدخل
للغارة علشان ينتقم لنفسه.

فتح «شريف» فمه مندهشاً و«هشام» يكمل كلامه قائلاً:

- وكان نفسه تخلي بالك على أخته وأمه لو حصل له حاجة.

- إنت إيه اللي جابك هنا؟ مهريتش ليه؟

التفت له «هشام» وقال ببرود:

- إنت من جماعة «ظاهر بن ميمون».. صح؟

عاد «شريف» لرفع الورقة للأعلى وتقريب القداحة منها. نظر
«هشام» للورقة وقال:

- لو هابز تظلمني في أضعف حالاتي يبقى تستنى لعد ما أحصل
إلي زيك خاف بعمله.

- إنت هاتعمل إيه؟

- إني إنت كان نفسك بعمله، هشام» امبارح وصل لي وقعد
يتكلم معايا، حكى لي كل حاجة، وفي الآخر وافق إنه يعرضني من غير
شرط. لكنه مات قبل ما يتفك أسري وأحقه، وحقه عليا إني أرجع
له كرامته قدام المكان اللي عاش فيه.

- إنت هاتقتل «التونو»؟

- ابتسم «هشام» وقال:

- أنا مقتلش إني هاتقتله، لكن إنت نفسك في ده، تحب أحقق له
كل أحلامك؟

- أحلامي؟

- جماعة «بن عيمون» طول الوقت في اختبارات وغلوات
وروحانيات، فاكربين إنكم بتحققوا العدل في العالم، لعد ما نصبتوا
للعننى الحقيقي للعدل. إنه مفهوم الهي، والظلم مفهوم الجن
والبشر، لازم يقع ظلم على طرف من الأطراف في الدنيا علشان
يتحقق العدل، أما إني إنت بتظلم بييه دا يتحقق في الآخرة.
- نفس كلام «هشام».

- اتعلمت كتير منه إمبارح في الكام ساعة اللي قعدتهم معاه. أن

الأوان إنك تفكر في كلامه مرة تالية.. يا ترى هايزني أرجع السجن
تالي؟ ولا أكون معاك تطبق العدل في الدنيا من جديد؟

صمت تام همر الشقة الدقيقة، و«شريف» يفكر فيما يقاله هل كل
هذا الاعتبار له من شيء؟ هل حقا يرغب في تكملة مسيرته معه؟ أم
يستغنى قوته الحقيقية في رد اللطام؟ فجأة رد ليتوقف هو عن التفكير:
- أنا هاسيبك تعمل اللي إنت جاي علشانك، لكن بعدها هاحرق
الورقة وهارجعك سجنك.

- أنا أقدر أكسر رقبتك دلوقت قبل ما تفكر تحرق الورقة، لكن
أنا موافق أرجع سجنني تالي بعد ما أخلص اللي أنا جاي علشانك،
هاسيب ليك الاختيار، يا نبقى مع بعض يا إما ترجعني مغارة
«وادي المستضعفين».

عاد «هشام» للنظر من خصاص النافذة للشارع وهو يقول:

- «ريم» وأمها ناهين في أوض نومهم، لأنهم مستعملوش يشوفوا
شكلي الحقيقي. أنا بطمنك علشان متفكرش فيهم كثير.
- إنت ليه لقبك «خادم وادي المستضعفين»؟

- علشان زمان أوي من قبل التاريخ المستضعفين كانوا يحضروا
في الوادي يشتكوا من ظلم وقع عليهم ويطلبوا مني العدل.
- لقصد يطلبوا منك توقع الظلم على اللي ظلموهم.
- وهو ذا اللي إنت مؤمن بيه يا «شريف»، بس خايف تعرف
لنفسك بكند.

عاد «هشام» لينظر لشريف ويتسم قائلاً:

- «النونو» رجع من بدري بيته ودخل ينام، أنا مرصعش أبداً إلا لما إنت تيجي، عشان تفرج وتلفظ خيلك. لما أرجع حق «هشام» في نفس المكان اللي اتأخذ منه هايبقى قدامك فرصة إنك تحرق الورقة اللي معاك وتبعت خدمتك تسحبني للمغارة.. سلام يا «شريف».

وكان أرض غرفة النوم من الماء؛ سقط فيها «هشام» وانخفض عن نظره. جرى «شريف» ليكشف عند النافذة فشاهد «هشام» يخرج من باب المنزل بشكل طبيعي، ويسير مختالاً بين الناس في الشارع وهو يدخل منزل «النونو» وجميع المارة في الشارع ينظرون لبعضهم البعض في خوف.



حاول «النونو» النوم وهو يتقلب على فراشه بقلق، فجأة سمع صوت فرقة عالية تأتي من صالة الشقة، قفز من على فراشه لكن ما كادت قدماه تلمسان أرض غرفته إلا وباب الغرفة يتهشم للقطع صغيرة كأنه انفجر بالبارود، والشظايا الخشبية تتطاير في أنحاء الغرفة وبعضها يصطدم به.

دخل «هشام» الغرفة بثبات وهو ينظر له مبتسماً بمرود. ردة فعل «النونو» كانت أسرع من إدراكه هو شخصياً، فقد وجد نفسه يسحب مطواته من تحت وسادة نومه ويصل لهشام بقفزة واحدة وهو يفرس نصل المطواة في كتفه.

رفع «هشام» يده اليسرى وأمسك برقبة «النولو» الذي هُمل في
جعل قوة تلك القبضة. فزبه «هشام» منه وقال بصوت خافت:
«هشششش.. كلام في شرك أنا مبعوثش بالطريقة دي، بس
يرمي لقول للناس اللي بول

أنهى مبارته وهو يتنزع الخطوة ببساطة من كتفه بيده اليمنى
إمام مبني «النولو» الجاحظتين.
- ولو هاموت أكيد مش هارقتني واحد نولو.

ألقاه بيد واحدة ليصطدم برآة متهاكة في طرف غرفة النوم.
لكن «النولو» تنادى الاصطدام بها وهو ينظر لهشام بفرح، حتى
قال هذا الأخير:

- مش عارف أعمل فيك إيه! الاختيارات قدامي كتيرة لدرجة إني
متخبط، بس خليتي أقول لك على سر ثاني متقولش لحد عليه..
أنا مش «هشام».

قالها ووجهه يتضخم وفمه يستطيل حتى أصبح كوجه الخنزير
بلون أصفر فاقح وهيون خائرة، تكلم بصوت له رنين صليفي لا
يمت لصوت «هشام» بصلة وقال:

- طبعا أي حاجة هاعملها فيك مش هاتكون هنا.
صرخ «النولو» وهو يعود بجسده للوراء ويرفع يده عائلا
والكائن يقترب منه.



فتح «هشام» طُلف النافذة ليرى بشكل أوضح هجر عابري
من يمكن أن يشاهده. أهل المنطقة أنفسهم لم يلقوا له بالاً لأنهم
سمعوا كما سمع أصوات تحطم الأبواب في منزل «النولو»، لكن
أحدًا منهم لم يجرؤ على دخول المنزل، اكتفوا فقط بالحسرة على
«هشام» الذي يفريه «النولو» الآن، على الأرجح ككل مرة.

لكنهم صرخوا من الصدمة و«النولو» يلقى به من داخل باب
المنزل إلى الشارع هارياً كما ولدته أمه، وعلى وجهه جروح كثيرة
تأثرت منها الدماء.

ابتعدوا عنه قليلاً وأمارات عدم التصديق ترسم على وجوههم
البائسة، محاولين تصديق أن هذا من فعل «هشام» الذي خرج
من باب المنزل بجرود شديد، ممسكاً مطوأة «النولو» بيده اليمنى
وهو يقرب منه.

صرخ «النولو» بمجرد أن شاهده وحاول الزحف على الأرض
مبتعداً عنه، لكن «هشام» اقترب أكثر وصرر نصل المطوأة على
مؤخرته العارية ليحدث بها جروح خائفة لتأثرت الدماء على إثرها
تغرق أرض الشارع.

حاول أحد المارة التدخل والاقتراب من «هشام» لكن نظراته
حملت رسالة واضحة للجميع: أنه لن يتورع عن فعل أي شيء.
صرخ «النولو» بعرقته وهو يحاول الزحف بأسرع ما يمكن، لكن
«هشام» أحدث به جروحاً أخرى في الظهر، جروح تؤدي للموت
بسبب مواسير الدماء المنفجرة تلك. شعر بيد «هشام» قبض

على ذراعه وتقلب جسده ليصبح وجهه للأعلى. لم ينتظر ليعرف ما سيحدث لأنه شعر بالمطواة تخترق ذلك الجزء أسفل ذكوره. فهو لكن هذه المرة ليست أمًا بل من هول فكرة فقدان رجولته للأبد. النساء تصرخ والرجال يندرون أصيهم بأيديهم، و«النولو» قد استسلم لضربات المطواة الجديدة التي تفرح صدره ورقبته. لم يصرخ لأن جهازه العصبي أصيب بصدمة منذ قليل فلم يشعر بالأم، لكن الخوف ظل في عينيه بديلاً عن الأم، لذلك أغمض عينيه ونهى أن تنتهي القصة بأسرع ما يمكن. لكن «هشام» توقف وهو يتقي المطواة أرضاً وينظر للأعلى عند النافذة التي يقف عندها «شريف» ويتسمم له. بادلته هذا الأخير النظر فقط وهو يفعل قناحة بيده ويتولّى بعيداً عن النافذة.

ترك «هشام» الشارع ودخل منزله صاعداً للشقة. وجد «شريف» يقف في وسط الصالة وقد احته مضطعة والورقة بيده اليسرى بجانب النار لكنها لم تسسها بعد.

- من هابيش، كام دقيقة وهابوت. أيا سبته هاشان يعيش
أخر لحظات حياته مشاؤل.

قال «هشام» العبارة فظهرت علامات الغضب على وجه «شريف» وهو يقول:

- إنت خرّجت أسوأ ما فيا. خلّصني أستمتع بكل اللي إنت
عملته فيه.

- من أسوأ ما فيك، دي حقيقتك وحقيقتنا كلنا بمن وبشر،
إحنا بس بنجعلها.

- من خايف أرجعك مسجدك تاني.

- دا اختيارك زي ما شيفك قال لك.

أهلق «شريف» القذاحة قاتلاً:

- من هاسجك دلوقت، هايزك تروح الأول للمعلم اللي كان
مشغل «التونو» وتقتله هو ورجاله، ويحديها هاسجك.

- إنت مش هاتسجني، إنت اخترت خلاص، ومش من دلوقت،
من أول ما سبعتي أنزل لـ «التونو»، إحنا بقينا في طريق واحد
وهالكمل فيه للأخر، تعبني أظهر للمعلم بشكل «هشام» وأنا
بقتله؟

لم يرد «شريف»، بل تصلب وجهه على اللاتعبي، ابتسم «هشام»
بسخرية وهو يغادر الشقة ويقول:
- أشوفك لما أرجع.

أليس «شريف» القذاحة والورقة على الأرض، مرت بضع ثوان
ابتسم بعدها وهو يتنفس براحة جديدة، شامراً أنه عثر على ذاته
أخيراً.

تمت



ضريح
عمرو بن العجّ

مقدمة الكاتب

في عام 2009 لم تكن كتبي قد حققت انصافًا يُذكر، وحلقتي بالوسط الأدبي لم تكن كمثل هذا الوقت، لذا كان لزامًا عليّ أن أدهش عندما عدت لشقتي يوم 11 فبراير عام 2009 ليلًا لأجد أن هناك طردًا ينتظرني، أخبرتني والدي أنها استلمته من عم (محمد الفولي) الذي يعمل بمكتب البريد القريب من منزلنا، والذي يعلم منزلنا جيدًا ويعرف عائلتنا فردًا فردًا منذ ميلادنا إلى اليوم، جميع الخطابات التي أتت بمنزل عائلتي كانت على يديه بداية من مراسلات أربائنا في بعض دول الخليج العربي في التسعينيات من القرن السابق إلى إندارات الفصل التي أمطرتني بها مدرستي وأنا في الثانوية العامة.

أما أن يصلني طردًا باسمي فهذا غير متوقع، وخاصة أن الطرد قادم من مكتب بريد مكان يسمى «القصر»، قبل أن أفتح الطرد بحثت على الإنترنت عن هذا المكان فلم أجد مكتب بريد «القصر» وقت كتابة هذه السطور اكتشفت أن القرية أنشئ لها مكتب بريد- لكن وجدت أنها قرية في الواحات، مزقت المنظروف فوجدته يحتوي على أوراق كثيرة مرقمة من العدد (1) إلى بقية الأعداد على طرف كل ورقة، حتى حافة الأوراق متباعدة فوجد ثلاثة أوراق

فلوسكاتب تتبعها ورقة من كشكول ثم ورقة أخرى متباينة بحجم جديد وهكذا كان من كتب هذه الأوراق لم ينها في يوم واحد وقد كتبها شخص يدعى (عصام) على هيئة رسالة طويلة، وهذا الشخص يخاطب المرسل له إليه بأريحية شديدة باعتبار أنه صديق عزيز له، وبرغم أن تلك الأوراق أرسلت على عنوان منزلي إلا أن (عصام) هذا كان يخاطب شخصاً آخر غربي باسم غير اسمي لكن بصفات تشبه صفاتي كأنه يعرفني جيداً!!!!

بجانب الورق وجدت ثلاث رسومات بيد مرتعشة، إحداها لمبنى مربع بقبة، والثاني لم أفهم المقصود منها فهم أقرب للرسم الهندسي الميكانيكي.. قرأت الورق ولم أفهم وقتها أو بمعنى أدق لم أصدق ما فهمته وقررت البحث خلف تلك الأوراق، بعد أيام نسيت كل شيء عنها وأدركت أنني أفضل تجاهلها مؤقتاً، منذ عامين وجدت الأوراق أثناء تنظيف غرفة نومي القديمة وظللت في حيرة هل أنشره أم أنخلص منه في أقرب مقلب قمامة، أعتقد أنني قررت إرضاء لضميري أن أعرضه لكم بعد حذف بعض العبارات وتغيير اسمين وبعض الصفات الشكلية التي ورثت بالورق.. وإليكم نص الورق الكامل بعد مراجعته لغويًا متمنيًا من الله أن تكون مزحة من أحد أصدقائي في تلك الفترة.

القاهرة

2018



نص الورق المرسل:

عزيزي / حسين

تحية طيبة وبعد ..

ملحوظة: كما اتفقت معك أنني سأرسلك داخل الخطابات باسم «حسين» وإن كنت لا أعرف سبباً لذلك، لكن إن أرسلت الخطابات بتلك سأكتب اسمك الحقيقي على الظروف في يمينك. إهدئي لاستخدام كلمة «عزيزي» و «تحية طيبة» في الأعلى لأنني لم أرسل خطاباً بالبريد طوال حياتي القصيرة، لا أعرف ماذا يكتبون في البداية، لا أعرف حتى هل يُكتب نص الخطاب بالفصحى أم العامية، وحيث أنني أسمع تلك الكلمات يرددونها أبطال الأفلام وهم يكتبون الخطابات فإنني أرسلها لك بكل سرور.. أعتقد أن بكل سرور» سمعتها أيضاً في أحد الأفلام.. المهم، لقد وصلت اليوم لقرية «القصر» بالواحات الداخلة.

«سليمان» سائق التاكسي الذي أرسلته معي قريب الأطوار، كاد أن يفجر مرراري عشرات المرات، آسف يا «حسين» لكن هذا الرجل مجنون فعلاً، قل يتحدث عن إصابته بالبواسير بعماس زائد وكيف واجهها بشجاعة وحزم، ورحلته مع اللبوس والمراهم حتى العمليات

الجراحية، فحُبل إلى أنه سيريني مؤخرته بفخري ليثبت لي أنه مقلد
ومفيد ولم يقبل سوى الأفضل لمؤخرته.

وإن تولف عن سرد حكايات البواصير فإنه ينتقل للحديث عن
السيارات ومطربي مصطلحات تخص هندسة الميكانيكا من وجهة
نظره، لا ينفك أن يتحدث عن (الخواجة) الذي صنع السيارة ومن
ذكاه وحكمته لأنه جعل السيارة القلاية «مضمها لاف» كما
أطلق عليها هو.. هل للسيارات مقام؟

ثم انتقل لحلمه الذي طالما حلم به، وهو أن يمتلك سيارة
(ريجاتا) موديل 1986؛ لأن الخواجة الذي صنعها في هذه السنة ذو
بالي رائق.

حاولت الهروب منه بالنوم لكن ذلك لم يفلح، هل تصدق أنه
ظل يتحدث وأنا مغضض العينين وأتظاهر بالنوم؟ ثماني ساعات
ونصف لم يتوقف عن الكلام لحظة واحدة.

عند اقترابنا من حدود القرية كما رأيت على الـ (gps) داخل
هاتفي المحمول وجددني أصرخ في «سليمان» بأن يتوقف عن
الحديث كي أتحدث في الهاتف، اتصلت بصديقك «رامي العريسي»
الذي أوصيته عليّ على هاتفه المحمول، فأخبرني بأنه سينتظري عند
موقف سيارات الميكروباس في بداية القرية، توقف بي «سليمان»
بجانب الموقف ففكرت مثل المجهنون خارج التاكسي وأنا أصبح
به أن يفتح حقيبة السيارة لأخرج حقائب سفري، فكرت أن أركل
سيارته وأجري بحقيبتي لكن تذكرت أنك تعرفه وتتعامل معه

الكنيت بالتوقيع له يدي مودعًا وهو يغادر القربة وأنا أصرخ
هنا طبقًا طبقًا على بواسعك.

انفجرت دقاتي أراقب فيها الحركة لارورية حولي أصرخ أنني
بالقرب من موقف الألف مسكن بالقاهرة، نفس الوجوه ونوعيات
السيارات، الحقيقة أنني وقعت في الخطأ الذي طالما اتهمت به من
حول. اعتقدت بأن أي مكان يقع خارج القاهرة والإسكندرية فإنه
لا يمت للحضارة بصلة، أهله يتحدثون لغة غريبة، يرتدون ملابس
من عصر سحيقة، لا يعرفون معنى للتلفزيون والإنترنت والهاتف
للعمول.. وهذه المشكلة يعاني منها الكثيرين من القاهريين الذين
يزورون الواحات كما عرفت فيما بعد من «رامى».

القرية سيارة ذات دفع رباعي قديمة الموديل وتوقفت بجانبه
خرج منها شاب طويل القامة لدرجة أشعرتني بالتضاؤل أمامه،
كفاه العريضان أوحيا لي بأن هناك الكثير من العضلات مطبوعة
تحت ملابس، حليق الوجه، أبيض البشرة.. يرتدي معطفاً ثقيلاً
يظهر قميصه من تحته، وسراً من الجهاز يداري بضع عضلات
أخرى على الأرجح، دعوت الله أن يكون «رامى» صديقك ولو أن
مظهره يوحي باسم «عبد الواحد» أكثر، صافحتني بحرارة شديدة
وهو يحصر يدي بقوة وأنا أحاول هائل نفسي كي لا أصرخ كالنساء
من الألم.. طبقاً هو «رامى»، عرفني من وجهي، قال إنه رأي مرة في
حظة من حفلات التوقيع، أدخلني السيارة والطلقنا للزلة.

لم يتحدث كثيراً ليعرّفني أشاهد معالم الطرق في القرية. وكنت في احتياج لهذا بالفعل. هناك الكثير من العمارات حديثة الإنشاء كما أرى. صادفتني بعض المنازل ذات الطابقين مبنية بالطوب اللبن كما فهمت من «رامسي» بعد أن سألتها عنها، لا تختلف القرية عن أحياء القاهرة كثيراً إلا في عدد الناس. فعددهم قليل مقارنة بنا. غير هذا فقد انتشرت المعال والمقاهي في الشوارع، ومرت بجانبنا سيارات من موديلات حديثة مختلفة بطريقة طبيعية.

- كنت فاكراً عايشين في الغيام ويتنقل بالجمال.. صح؟

سمعت «رامسي» وهو ينطق تلك الجملة بشيء من السخرية والتموم:

- بصراحة آه.. «حسين» كلمني على قبيلة «ولاد عمار» إنهم في صحراء فالتكرت إن «القصر» زعيم.

- إحنا فين و(ولاد عمار) فين.. هُنا برا «القصر» بعوالي 15 كيلو. لكن احنا هنا زي مصر، على العموم انت هتبات في بيتي النهارده وبكرة نصلي الفجر ونطلع عليهم على طول.

عدت لأشاهد منازل القرية وشوارعها حتى توقفنا أمام منزله المكون من طابقين والمبني بالطوب الأحمر.

أدخلني للتضيقة وهي قاعة مفتوحة تُشبه حقة صغيرة لكن بلا سقف، بها العديد من المقاعد والأرائك التي يمكن تغييرها لتصبح فراشاً صغيراً. هناك حمام صغير ومطبخ به الكثير من

الزاي والقهوة والسكر وموقد كهربى بعين واحدة.. هنا سأبيت
ليلتى كما علمت منه.

تركنت لأهجر ملابسى وأستخدم الحمام، ارتديت شيئاً مريحاً لكنه
يدفئنى لأن درجة الحرارة هنا منخفضة بشكل كبير، ورغم أننا
ما زلنا في فصل الشتاء إلا أن درجة الحرارة لم تكن منخفضة بهذا
الشكل في القاهرة.

بعد ربع ساعة سمعت دقات على باب القاعة دخل بعدها
«رامى» يعمل صينية طعام كبيرة وخلفه شقيقه الذى عرفنى به،
لبادلنا التحية بينما دخل والد «رامى» بعدهما ليستقبلنى بحرارة
وبعبارات فخيمة.

عندما قابلت «رامى» اعتقدت في البداية أنه يتحدث اللهجة
القاهرية بطلاقة بسبب أنه يحضر لمناقشة الدكتوراة في التاريخ في
(جامعة القاهرة) كما قلت لي سابقاً وأن بقية القرية لها لهجة
مختلفة، لكن شقيقه ووالده يتحدثان باللهجة قاهرية طبيعية
سريعة قليلاً.. هل يتكلم أهل الواحات تلك اللهجة بشكل عام أم
يتحدثون بها معي فقط كنوع من الترحيب؟

تركنتى والدة وشقيقه لأنهما تناولا الطعام منذ فترة قريبة،
وأوصاني على «رامى» وأن أهتم به عند مناقشة رسالة الدكتوراة،
طبعاً.. فعائلته تعتمد أننى لطيف على رسالته باعتباره أستاذ
بجامعة القاهرة كما التفتت أنت معه.

جلسنا لتناول الطعام.. بصراحة كانت الصينية معتقة بالأور
للحمر أو البط والذي لا يهتمي أن أعرفه فقد التهمته كله، والفرغ
المشوية التي اهتمتها بجنون، لا مجال لقواعد الأدب فالجموع يقتلني
أنهيك الطعام وأنا أهرع بغمول لذيذ يدعوني للنوم.

لديت ساعتها أن يتركني «رامي» لأنام، لكنه أخرج الأطباء
الفارخة أمام الباب وعاد للمضيقة ليعد الشاي لنا، دارت مناقشة
بيننا عن كيفية تعرفنا نحن الاثنان عليك، أخبرته أنني قاتلتك
شخصيًا في عام 2013 عندما عرفني عليك كاتب آخر كان صديقًا
مشهورًا لك عرف «رامي» أنني كتبت أربع روايات يدورون حول
الأفكار الصوفية والفلسفية أكثر من الدرامية، ومن الظاهر أنه قرأ
إحداها ولم تعجبه لكنه لم يتطرق للحديث عنها.

تناولت الشاي وأنا أهاب الشعور بالنعاس.. أما «رامي» فقال
وهو يجلس بالقرب مني:

- إيه السبب الحقيقي اللي خللك تيجي هنا يا أستاذ «عصام»؟

طار النوم من عيني وأنا أنظر له بطرف عيني، لم أفكر كثيرًا
وأنا أقول:

- تفكر هأخبي عليك إيه؟ هو مش «حسين» قالك إني جلي
أزور قبيلة «أولاد عمار» وأصوف القبيلة اللي عندهم اللي يسموها
«فريخ عمرو بن الجمن»؟

- أه بس الفريخ ده محدش يعرف عنه حاجة غير ناس قبيلة

في القبيلة، كبار عائلات القبيلة وكلام واحد ثانيه ومهندس يعرف التاريخ ده الي بيتكرر كل 10 سنين إلا حُنا بس، لاني «حسين» بعثك في التوقيت ده بالذات؟

فهرت بلهجة اتهام برغم أن لا تومة عليّ وتذكرك يا «حسين» وأنا أسبك في سري.. لم تمر لحظات إلا وأنا أضغ كوب الشاي جانباً بينما «رامسي» يخرج علبة سجائر من جيب سرواله ويفعل منها سيجارة ناظراً لي بتعطر.

- اسمع يا «رامسي»، أنا هاقولك على كل شيء أعرفه من دلوقت ملشان متغنش فيا أي سوء.

نفث «رامسي» دخان سيجارته وتعبيرات وجهه العادة لرمقني، صمته يدعوني لتكملة الحديث بدون أي وعود لتصديقي، قلت وأنا أحتدل في مجلسي:

- من شهر «حسين» جالي للمكتب وطلب مني مساعدته، قال لي إنه محتاجني أزور فريق لولي من الأولياء في منطقة الواحات، أنا في الأول مفهمتش حاجة، لكنه فرجلي إنه محتاجلي أنا تسبين أولهم لأنني كنت صولي زمان أوي واهتميت بالمقامات والأفرحة طول عمري.. في الأول مقتنعش بكلامه لكنه أقنعني لما قال السبب التالي.

«رامسي» القبي مازال ينفث الدخان في وجهي بصمته لا يعرف أنني توقفت عن التدخين منذ هام وثلاثة أشهر، أصر بانني أحتاج لسيجارة الآن، لكنني حاولت لتاسي إحساسي وأكملت:

- السبب التالي إلى ذي ما قلته كنت صوفي زمانه يعني مبدئى دلوقت، بعدت عن الصوفية من 3 سنين، مبدئى مؤمن بكل تفاصيلها ذي الأول، بحسب حاجات فيها لفاية دلوقت لكن كرهت كثير منها.

أخرج تكلم «رامى» قلاد:

- يعني إيه؟، السبب الأول عايزه علشان بتزور المقامات والتالى علشان بطلت لزورها. هو «حسين» بيقولش علينا ولا إيه؟

- لا. هفهمك، لما سبت التصوف فضلت أحترمه وحتى الحاجات اللي كرهتها فيه لسه باحترمها وباحترم اعتقاد الناس فيها، مثل مؤمن دلوقت إن المدفونين في الأضرحة ليهم بركات، لكن باحترمهم وأحترم حياتهم ومماتهم وعلمهم، باحسب أتفرج على معمار المقامات والأضرحة وأشوف الحالة الروحانية الجميلة اللي بتسيبها في نفوس الناس، علشان كده «حسين» طلب مني آجى، لأنى هاكون متعادل في حكمي، هاشوف الضريح وأقدر أبلغه باللي هشوفه هناك في الليلة اللي بتتكرر كل 10 سنين.

أطلقاً «رامى» سيجارته في مظفأة سجاير على إحدى المظافد، الغبي أطفالها من متصفها، لو كانت تلك السيجارة بيدي لشربتها حتى آخر نفس ثم أكلت الفلن، قال لي بشك:

- طب ولاي هو عرف للمعاد؟

نهضت لأذهب لعقائب صفري وفتحت إحداها وأنا أقول:

- قال لي إنه اشترى مخطوط من واحد صوفي بسعر رخيص، عبارة
من كام ورقة اكتبوا في القرن ال 19، كلهم كانوا مكتوبين بحاجة
اسمها قلم روحاني.

- إيه القلم الروحاني ده؟

قالها «رامسي» بينما أنا أخرج من العقيدة الورقة التي كتبها لي،
أعطيتها لرامسي وأنا أقول:

- القلم الروحاني ده حاجة كده شبه نكش الفراع بعيد منك،
الظاهر إن فيه ناس زمان كانت بتشفّر النصوص الخاصة أوي بشكل
رموز، يقول إن صاحب المخطوط كان ولده من مكتبة أبوه بس
هو من عارف يقرأه، علشان كده اتغلى عنه سره، لكن «حسين»
فك الشفرة بسهولة علشان كانت رموزها مشهورة وعنده مفاتيحها،
اسم القلم اللي اكتب به الكلام (القلم المصري)، واللي في إيدك
ده ملخص بالعربي للي كان مكتوب، ادهوني «حسين».

- لم يكن «رامسي» معي لأنه أصبح الآن بعينه في الورقة، رفع
وجهه إليّ وقال واجئ:

- إيه الشخصية دي؟

جلست على الأريكة وأنا أقول:

- سميني أحكيك اللي مكتوب جوہ الورقة علشان فيه
مصطلحات كثير فهمتها من «حسين» ولازم تسمعها مني.
أخبرته بأن المخطوط كتبه رجل من الفيوم يلقب بابي باسل،

وأنه كان مديراً على أحد أوقاف الأزهر هناك، وكيف أنه وصل
 في المخطوط بدقة قصر «أم عليجة» بصحراء الفيوم، القصر الذي
 بُني على الطراز الإسلامي وترسعت مداخله بالأحجار الكريمة وأرض
 قاعاته الداخلية رصفت بالعملات الفضية والذهبية، وأرائكه نسجت
 وسائدُها بخيوط من الذهب يحاطونها الألباس، وكيف أن «أبا باسلة»
 دخل للقصر بشكل رسمي حاملاً رسالة من «حسين الملاء» أحد
 نظار «محمد علي باشا» فشهد هناك الشخصية العجيبة التي
 يتحدث عنها الناس، بالطبع حاولت شرح معنى الشخصية لرامي
 أنها فتحات في السقف تسمح بدخول الإضاءة وفي نفس الوقت
 تعمل كتهوية لأنها تسمح بمغادرة الهواء الساخن منها وتطو تلك
 الشخصية شكل معماري كالقباب مثلاً، أما شخصية قصر «أم
 عليجة» فهي غريبة، لأنها كانت تنير القصر في المساء بإضاءة بيضاء
 اللون، الشخصية الخاصة بقاعة الاستقبال الرئيسية زينت بالألواح
 مزخرفة تمتص ضوء الشمس صباحاً وتضيء به القاعة ليلاً، ومن
 الألواح تخرج حبال طويلة تصل للألواح الأخرى في شخصية بقاعة
 ثانية وثالثة وهكذا حتى تضاء تسع قاعات من قاعات القصر، أما
 الضوء فقد أتى من فتاديل ذات زجاج شفاف، تجمع الألواح الإضاءة
 بها فتُفْرِج ضوءاً أبيض قوياً ينير القصر ويظهر خارجاً من القصر
 لكل مظن يمر بجانبه ليلاً، أما «أبو باسلة» نفسه فقد تعرّف على
 أحد خدم القصر والذي أخبره بأن «أم عليجة» صوفية المذهب أتت
 عن جد أخذت العهد من شيخ للرازيين بمصر كما أخذه أبوها من

للمغرب لها من الكرامات ما لا يُعد ولا يحصى، وبعد الخدمات التي قامت بها عندما كانت تتوسط دائماً بين الحكومة المصرية في القاهرة وبين قبيلة «الرماح» لتصفية الخلافات.. أهداها حريان بنو «الرماح» بعض متعلقات أحد الأولياء الذين عاشوا في بقعة بعيدة في صحراء الواحات الداخلة، لا يعرف موضع دفنه ومقامه إلا «بنو عمار»، أحد بطون قبيلة (الرماح).

الوحيدون الذين انفصلوا وعاشوا بالقرب من مقام هذا الولي، يعمون قبره ويتبركون بمقامه وينعمون ببركاته، يقول «أبو باسل» إن الخادم حكى عن كرامة من كرامات هذا الولي، وهي أن قبره يُلقح من تلقاء نفسه كل عشر سنوات، في تاريخ هجري ترجمته أنت يا «حسين» إلى الثامن من شهر فبراير في السنة الثالثة من الأعداد العشرية للتاريخ الميلادي، يخرج من القبر أتباع الولي من الجن يطوفون حول مقامه في حلقة من الذكر لله وينعون فيها فينهم وابن عمومتهم.. فاطمني هنا «رامي» وهو يستفسر:

- الجن ولاد العم نولي ده؟

- ذا اللي مكتوب في الورق، اسم الولي هو «عمرو بن الجن»، و «أبو باسل» يقول إن جني التجوز أمه ولما اتولد «عمرو» خطفه أبوه لتحت الأرض، ورجع تالي لما كبر عاش فترة في الواحات الداخلة ومات هناك ومحدث حريف سره إلا «ولاد عمار» اللي عاش ومات وسطهم، أما متعلقاته فكلها كرامات ما يعرفهاش إلا اللي بيعرسها.

- يعني قبيلة «الرماح» في الفيوم وقصر «أم حليجة» في الفيوم
برضو ومع ذلك جاثلها الهدية من ولاد «عمار» اللي هدا؟

قال «رامي» مبارته وهو يشعل سيجارة أخرى وعقلي ينشغل
بمراقبة الدخان الصادر من فمه بينما يكمل هو:

- وكلام كاتبه واحد ملوش اعتبار زمان ولا نعرف عنه إلا إن
اسمه «أبو بابل» يقول إنهم جابوا لأم حليجة حاجة بتدور قصرها
بالجن علشان بيعبوها لله في الله.. إنت مش ملاحظ إن الكلام ده
ملخبط ولا يرقى حتى إنه يكون أسطورة حديثة.

أجبرت عقلي أن يتوقف عن مراقبة سيجارة «رامي» ورفعت
قدمي على الأريكة لأضعها تحت ي ارتاح مهجلمي وقلت:

- فيه فرع في التاريخ اسمه التاريخ الهامشي، هو فرع جديد
وعليه اختلاف كبير لكنه يعتمد على أجزاء صغيرة لأحداث ممكن
تبان إنها مش مهمة أو مش جاية من مصدر موثوق، علشان بقدر
يرسم منظور جديد لفترة تاريخية كنا فاكرين إن اللي وصلنا عنها
كله صح، الكلام اللي في المخطوط ده ممكن يكون مدخل لموضوع
أكبر.. ويمكن يطلع كله كتلة وولا ليه أي لازمة، لكن متنكرش إن-

قاطعتني «رامي» بشيء من العصبية والتعالي وهو يقول بحدة:

- مفيش حاجة اسمها تاريخ هامشي، أنا دكتور في التاريخ
ويقولك إن ده كلام فاضي، «حسين» مش متخصص في التاريخ علشان
يعحكم على مخطوط ويأخذه كمصدر موثوق.

- هو انت من له بتعطي في رسالة الدكتوراه؟

- آه..

- اومال إيه دكتور في التاريخ اللي بتقولها دي؟

قلت عبارتي لأفاجأ برامي يلقي بالسجارة على الأرض ويسحقها
بخطفه.. هذا الشاب يلقي بالكثير من السجائر بعد أن يسحب منها
نفسين فقط. يجب أن أقتله في وقتٍ آخر بسبب ما يفعله في تلك
السجائر المحكيمة، المهم أنه نظر لي بعصبية وقال بصوت عالٍ:

- أنا تأخرت في مناقشة رسالة الدكتوراه كام شهر، يعني كأي
دكتور بالقطعة، ومن أي دكتور أنا كل اللي في الجامعة بيحلفوا
بلكل وقوتي في التاريخ.

أعرف هذا النوع جيّد، طالب الكلية المنطوي الذي يحلم
بدرجة الدكتوراه، ويظل يبعث نفسه بهذا اللقب بمجرد تخرّجه من
الكلية، هذا النوع الذي يشعر بأن الكون كله يتلخص في حصوله
على الدكتوراه حتى ولو كانت في صناعة الملابس الداخلية، أكرههم
جميعاً لعاليهم على الجميع وكأنهم امتلكوا تصريحاً إلهياً بالفتوى
في المسائل العلمية حتى التي لا تخصه، كل ما فات لم يغضبي،
لكن الذي أغضبي بحق هو تعامله القذر مع السجائر، لذلك قلت
له بيروء.

- سوف يا «رامي»، أنت هاتخذ درجة الدكتوراه إن شاء الله
في موضوع تاريخي واحد، فلما تأخذها ابقى اتقي في الموضوع

بتأمله في ما تحب وبرضو كلامك مش هايكون ملزم للمؤرخين
أو الباحثين اللي شغالين في نفس موضوعك، لكن إوعاك تفكر إنك
هاتفتي في كل مواضيع التاريخ، الحكاية أكبر مني ومنك، وأحنا
هنا مش هلفان نناقش في بعض، أنا جاي هلفان شغل وانت لو
هايز تساعدي ساعدي أوصل للحقيقة مش إني أعاذ للجانب بتأمله
لمجرد إنك بتناقش رسالة دكتورة ولسه ما أخذتهاش كمان.

انتهيت من كلامي وأخذت نفساً عميقاً وأنا أنظر للسيجارة
التي سحقتها «رامي» منذ قليل، أكاد أراها تنظر لي بامتنان ودموع
العكر تنهال منها في شكل رماد.. فجأة ابتسم «رامي» كالمرضى
النفسيين وهو يحدق في عيني بصمت، هل كان يفكر في قتلي حينها
أم فكر وهو الآن يختار الطريقة المناسبة لإخفاء الجثة؟

لم يمر الكثير من الوقت على هذا الوضع حتى اقترب مني
وجلس بجانبني وهو يقول والابتسامة عازالت ملتصقة على وجهه:
- أنت مالك واحد لموضوع بعصية كده ليه؟ أنا كنت بهزر
معاك.. انت صدقت اللي بقوله؟
- آه صدقت.

فلتها والاشك يلفز من عيني وأنا أحاول فهم ما يرمي إليه،
قال وهو يرتقي على الأريكة بجانبني:
- أنا حبيت أنكشك بس، يعني «حسين» بامتك كل المسألة دي
وسايبك أمالة معايا وتفكر إني مش مقتنع بكل اللي انت قلته
وأصرف أكبر كمان من اللي انت تعرفه.

أه يا ابن الد.. أرسلتني لمن يتلاعب بي يا «حسين» لن أسمع
«رامي» على العرض لمصرحي الذي قام به أمامي ما كان يجب أن
يقتل سيجارتين كي يفعل بي ما فعل.. ما ذنب السجائر في تفاهاتنا.
- يعني انت بتستهمني يا «رامي»؟ طب ليه بس يا أخي.

ضحك هو ضحكة سمجة لم أفهم معناها وترجع في مجلسه قائلاً:

- مجلس على المقلب، أمّا «حسين» استفادني في قصص
وحكايات قبيلة «الرماح» باعتباري أحرف كثير عنهم علشان حلة
نسبي بولاد (عمار)، وكم ان علشان التاريخ تنسعي، وأنا دورت ورا
كلامه ولقيت فيه شيء من الحقيقة.

- إنت مناسب قبيلة ولاد «عمار»؟ ازلي؟ هو انت متجوز يا

ابني؟

- لا.. دا نسب بعيد من جوز خالتي، لكن النسب عندنا مهم
وفعال أكثر من النسب عندكم في القاهرة، النسب ■ يعني ولاد
«عمار» يعتبرولي من العيلة.. كثير من ولاد «عمار» سابوا قبيلتهم
في الصحرا ونزلوا هنا في «القصر» يعيشوا ويتجوزوا متنا، مباح
فاضل في مكان القبيلة إلا ناس قليلة أوي تقدر تقول عليهم حواجز
العائلات اللي كانت عايشة، أولادهم وأحفادهم بيطلعوا يزورهم
من وقت للآخر يقدوا معاهم يومين ويرجعوا قريتنا تاني.

- يعني انت زرت القبيلة قبل كده وشوفت الفريخ؟

- كام مرة طلعت مع ناس أصعالي من ولاد «عمار»، لكن لما

حاولت أدور ويا موضوع الضريح ده محدش فيهم كان عارفه إلا واحد وقال عليه إنه كلام فاضي وتغاريف جنودهم.

- يعني الموضوع طلع فاساكونيا؟

- يعني إيه فاساكونيا دي؟

- ألقب الموضوع طلع مش حقيقي؟

- مندرش أقول إنه مش حقيقي، مفيش دخان من خير نار.

قال «رامي» عبارته وأخرج حلبة سجاره فوضعت يدي على اللعبة وأنا أرجوه أن يتوقف عن بهذلة السجائر معه:

- والنبي يا أخي لو هاتشرب سيجارة اشربها للأخر، بلاش توجعها وتوجعني معاك.

نظرتي بدعشة فأخبرته أنني تركت التدخين من فترة وأكره من يبدأ سيجارته ولم يكملها، عرض عليّ سيجارة فرفضتها بحماس وأنا العن نفسي من داخلي أنني لم أقبلها، ابتسم وأشعل سيجارة وهو يقول:

- على العموم لما تحب تشرب سيجارة قولي.

شكرته وسأله عما يعرفه بالتفصيل عن موضوع «أم حليجة» فأخبرني والدخان يخرج من فمه:

- دورت ويا اسمها في كل المراجع اللي قدرت إيدي توصلها، لكن الكلام عنها منعدم إلا في كام كتاب، أما في حكايات القبائل العربية فأم حليجة موجودة بكل الأشكال اللي تتخيلها، ومعظمهم بيوصف

حكاياتها بدقة كأنه كان هايش معاه، لدرجة إن فيه قبائل زي «الرماح» بتحكى عنها حكاية تفصهم زي إنها التوسطت ليهم عند «محمد علي باشا» حلشان يعمل لقب مدني اسمه (الفارس) فتح لشباب القبائل العربية بورقة رسمية، والوالي وافق بشرط إن اللقب يكون لقبال الرماح بس، نفس القصة بتحكى لكن من منظور قبيلة «أولاد علي» وإن الولي وافق إله منهم بس اللقب ده، من الآخر كده «أم حليجة» دي كانت زي الأسطورة اللي بتكمل تاريخ القبائل العربية في حكاياتهم.

- طب وموضوع إنها صوفية وبيتها اللي عليه خدم من الجن والحركات دي، إيه نظامها؟

لهش ليحضر مظافة السجائر ووضعها بجانبنا وهو يقول:

- في كل حكاياتها هاتلاقيها صوفية وليها كرامات كمان، مثال للتدين والظهور والعفة والروحانية، أما قصرها فوصف موجود عند كثير من القبائل اللي شيوخها زاروها، والوصف فيه بعضه وخصوصاً موضوع الشخصية وتجميعها لضوء الشمس، لكن الكلام دائماً بيكون إنها كرامة من كراماتها، وفيه كلام تاني إن حُلُمها من الجن اللي أخذوا عهد التصوف على أيديها هُنا اللي يقدروا يجمعوا الضوء من الشمس وينوروا بيه بالليل، بس حكاية إن الشخصية دي هندية من «ولاد حمار» مش موجودة في أي حة، استنشقت بعض الدخان الخارج من قم «رامي» وقلت مسترخياً:

- طلبا القصة من موجودة عند حد إلا في المخطوط ده يقى
كده فيه احتمال إن الشخصية ليها علاقة بولاد «عمار».

- الكلام ده جه في بالي برضو، برضهم إن قبيلة «الرماح» بتتلى
الكلام ده، بتتغير إنهم كانوا قرييين من «أم حليجة» لكن في نفس
الوقت مفيش ذكر للحكاية دي عندهم، المفاجأة بقى إن «الرماح»
بينكروا علاقهم بولاد عمار.

- نعم يا أخويا!

قلتها وأنا أمتدل مجلسي بعدما تنبعت حواشي لكلماته.

- زي ما بقولك، قبائل «الرماح» بيعترفوا ببطون وعائلات كتيرة
تنسب لقبيلتهم في مصر زي ولاد (زيدان) وولاد (السكران) و(البصري)
وفيرهم وفيرهم، لكن عائلات «عمار» وقبيلتهم بينكروها، يقولوا
إنهم يتمسكوا في نسبهم اللي واصل للشاعر (أمرؤ القيس).

- إيه الخططة دي بقى؟

- بتحصل الحكاية دي كتير وياما قبائل عملت مشاكل مع قبائل
تانية علشان اللُصب والالتقاء، وخصوصًا إن «أولاد عمار» بعدوا عن
الكل من أكثر من 150 سنة وفضلوا منعزلين في مكانهم فهاهموش
بالرد على قبائل «الرماح» في موضوع نسبهم.

- ما انت بتقول إن الجيل الجديد هايشين معاكم والحياة بقى
مُنتهية معاكم.

- ما انت لسه بتقول أهو الجيل الجديد، أما القديم بقى قايمة
هايشين كأنهم في العصور الوسطى.

- إزاي؟

- لا موبايل ولا تلفزيون ولا كومبيوتر ولا حتى عربيات.

- الله.. أومال بياكلوا ويشربوا إزاي؟

- عادي، لما بيعتاجوا حاجة من الحضر ينزلوا لريتنا أو أي قرية قريبة بعربيات، لكن جوة القبيلة نفسها مفيش عربيات، بيعجبوا اللي بيعتاجوه للأكل والشرب والحياة.

- طب ما يجيبوا تلفزيون وموبايل وخلافه ويدلعوا أنفسهم.

ابتسم بطرف فمه كأنه يسخر مني، قال وهو يسحب آخر أنفاس السجارة:

- قولي انت جيت إيه علشان تاخده معاك بكرة للقبيلة؟

ابتسمت أنا وقد أحسستُ بقرب معرفتي السبب فيما أحمله معي، نهضت من الأريكة واتجهت لثلاثي وأنا أشير لإحداها قائلاً:

- هنا اللبس الثقيل واللبس الداخلي ولامواخذة والحاجات الشخصية »

لهض «رامي» خلفي بعدما أطفأ السجارة لتزقد بهانب أختها في مثلها الآخر، وأشار إلى الحقيبة وهو يقول:

- أخذ منها اللي يكفيك كام يوم والبالى سييه هنا وأنا هاجيبهولك لو احتاجه، علشان تكون رايح هناك خفيف خفيف.
- كويس..

قلت لها وأنا أتجه لحقيبة سفر كبيرة من حقائبي وأفتحها وأنا أقول:

- ودلوقت بقي شكلك تعرف السبب اللي «حسين» خلاني أجيب الحاجات دي علشاله.

ابتسم هو كما توقعت وقال:

- حاجات إيه؟

أخرجت الكاميرا وأنا أقول:

- كاميرا فوتوغرافيا شغالة بنظام الأفلام اللي بتتحمض، والحامل بتاعها وفلاش خاص بيها شغال بنظام اللمض اللي بتتغير.

أخرجت العلبة المعدنية التي تحتوي على المصابيح الصغيرة وبدأت في شرح الموضوع، عندما انتبهنا تلك الكاميرا معًا، أخبرته بأنها ليست قديمة جدًا لكنها من إنتاج شركة (كوداك) في الثمانينيات، في موضع الفلاش استخدمنا فلاشًا خاصًا صنعه «محمد طه» ابن خالتك يا «حسين»، وهو عبارة عن مربع صغير يوضع فيه مصباح صغير جدًا متصل بسلك، هذا السلك يتحكم فيه زر عبارة عن مقداح يعطي شرارة كهربية، الشرارة الكهربائية تقوم بتفجير المصباح ليعطي إضاءة الفلاش القوية، أما المقداح نفسه فمتصل ببطارية جافة (حجارة) هي من تعطي قوة القدح الكهربائي، وضع (محمد) مكان للبطارية الجافة والمصباح وأعطيتني أنت يا «حسين» 100 مصباح صغير بجانب 100 حجارة قلم وصممت أنت

عند استخدامي للفلاش أن أستخدم بطارية واحدة فقط عند كل مصباح جديد، هذه من الأسرار التي لم تطلعني على سببها حتى رحلت ولم أفهم سر تغيير البطارية كل مرة برغم أنها من المفروض أن تعطي عشرات القذحات الكهربائية للمصابيح كما جربناها سوياً، لكن أعتقد أن «رامي» يعرف السر، لكنه هز رأسه مبتسماً وقال:

- جميل جداً.. كمل، معاك إيه كمان؟

ظهرت معالم الضيق على وجهي وأنا أخرج حقيبة جديدة وأضعها لأخرج منها التلسكوب:

- ده تلسكوب ومعاها منظار طويل أرفي بركب على حامل التلسكوب، «حسين» ادالي المنظار وقالي استخدمه وقت ما أحناجيه هو والتلسكوب، حلمني عليهم شوية، بس أنا حسيت إن «حسين» بيوفن عليا مفر عارف ليه.

ضحك هو لكني لم أضحك، ما الذي أعطيتني إياه أيها المجنون!!، كاميرا فوتوغرافية وتلسكوب فضائي ومنظار، لا أعرف لما لم تعطني حبلاً وكشافاً وإضاءة وكرباجاً سودانياً وربع بسطومة بالمره، ما هذه التناقضات وعلامات الاستفهام؟، ما أعرفه من نصصك التي تنشرها أن تلك الرحلة تلزمها مصبحة طويلة وخاتم معتلى بالطلاسم وبعض كتب السحر كي أواجه الجن أو الأضباع كما يحدث في الأفلام الأمريكية، لكن هذه الأدوات توحى لي بالنسي في طريقني لرحلة سفاري في البحر الأحمر.

- وإيه كل الورق والأقلام دي؟

سأل «رامي» فأجبت بهدوء:

- ذا الهطل بتاع «حسين» يا سيدي، ما هي كانت ناقصة.. حضره
إدائي كمية ورق وأقلام علشان أكتبه اللي بيحصل معايا يوم بيوم.
وأبعثله الورق في شكل طرد على عنوان بيته بعد يوم 8 فبراير
بيوم، علشان هو مش هاستقبل أي تليفونات بعد ما هاسافر.

- فعلاً هو قالي الحكاية دي، إن محدش مننا يتصل بيه طول
ما انت هنا.. بس الحقيقة يا (عصام) إن مش ☹ السبب الوحيد
أعتقد أنه سيخبرني الآن عن السر وراء كل تلك الأشياء الغريبة
التي أجبرتني على فعلها.. جلس على مقعد قريب من الحطاب
وقال:

- فأكربا قتلوك إن ولاد «عمار» معندهم مش أي مظهر من
مظاهر التكنولوجيا.. الحقيقة بقى إن ده مش همزاجهم، لأن مفيش
تكنولوجيا بتشتغل عندهم.

- آه... إنت جاي تهزر بقى.

قلتها وأنا أُميد الأدوات للحقيقة بعصبية فأكملت هو:

- صدقني بتكلم بجد، معلى الموضوع قريب هوية بس لازم
أحكيهولك كله علشان تستوعبه.

نظرت له بشك فوجدته يد يده لي تعمل سيجارة يعرضها
عليّ، أنسم إن ريتي ملأ فمي فجأة، ما هذا الشيطان! أم أقل له
إنني ابتعدت عن التدخين.

. فكرًا من هادخن..

فلما فوضح هو السجارة في فمه وأشعلها ثم قال:

. ساعات بتولد تشوف حاجة بتحصل حوالك أو قدامك دايما
ومتجشش إنها غريبة، لأنها موجودة من أول ما وعيت على وجه
الدنيا مطبوط؟

جلست على الأريكة ورددت:

. مطبوط..

. أهى الحكاية كده مع ولاد (عمار).. اتولدتا لقيناهم كده،
مفيش أي حاجة كهريا بتشتغل عندهم أو بالتحديد في المنطقة
اللي هما عايشين فيها في الصحراء لو راكبين عربية وراحيلهم
هاتلاقي العربية بطلت ووقفت قبل ما تقرب منهم باتنين كيلو
فلنزل نمشي على رجلينا لحد ما نوصلهم، مفيش إشارات راديو
أو تلفزيون بتدخل منطقتهم ولا استقبال أقمار صناعية ولا إشارات
تلكية، كأن المنطقة بتبلغ الإشارات دي كلها.

. إنت بتهزر؟

فلما أنا ووجهي يرسم لوحة لؤلؤ اللامعاش كما يجب أن
يكونه فقال هو:

. مجلس هاتأخذ شوية حلفان تسحب وتصدق.. بس دي
الحقيقة، المكان ده لما تخش بهكرة هاتشوف فيه هنوء عمرك ما
تفتحه، مفيش أي أصوات إلا صوت الناس، هنوء ممكن يظوفك في

الأول لكن هاتعود عليه مع الوقت، وخصوصًا لما تعرف إن مفيد طيور بتعدي فوق المكان ده ولا حيوانات بتتقرب وكمان البوصلة مابتشتغلش هناك، بتتعد ترقص بين وشمال.

- طب والكهرباء مابتشتغلش في مساحة فطرها ■ إيه؟

- في حوالي 12 كيلو مكونين رسة شبة المربع أو المستطيل.

- طب والحاجات الميكانيكية؟

- شغالة عادي.. يعني عندهم بونجازات شغالة بأنابيب الغاز.

بواجه مية وحفريات موصلينها في الآبار، لكن زي ما قلناك (جي بي اس) أو تليفون معمول أو أي حاجة ليها علاقة بالكهرباء والموجات مبتشتغلش.

- والكاميرا الديجيتال أكيد مش هالتفتل.

- الله يدور عليك..

فهمت الآن يا «حسين» لما أعطيتني كاميرا فوتوغرافيا قديمة لتعمل بشكل ميكانيكي وفلاشها لا يتصل بالكهرباء بشكل دائم، لكن هناك مشكلة..

- إن كانت الكهرباء مبتشتغلش يبقى لازاي الحجرة القلم هاتشغل بية الفلاش؟

- أنا التفتت مع «حسين» على موضوع الكاميرا القديمة، لكن الفلاش بتاع الكاميرا شكلها انعكاسة منه أو من حد لاني، مش هعارف هاتشغل لازاي..

• وعاشان كده أنا مجبر أكتب كل حاجة في شكل ورق بدل ما اتصل بيه وأبلغه بنفسى..

• وأنا هابتعت اللي انت هاتكتبه على مرتين كل مرة في شكل طرد من مكتب البريد اللي هنأ للمرة الأول يوم 9 فبراير والتالية يوم 15 من نفس الشهر ويوم 20 هارجعك القرية هنا ثاني انت والضيف اللي معاك وتروحوا على مصر تاني.

• فيف مين؟ هو أنا مش هاروح لوحدي؟

تتجنح «رامي» وابتسم مرة ثانية بسحاجة وهو يقول:

• فيه واحد تاني «حسين» كان المفروض بيعتبه معاك، لكنه لازم يطلع حاجة الأول في مصر ويعملك قبل يوم 8 فبراير.

• محدش قالي ليه على الحكاية دي؟

• «حسين» قال إنك هاتظلمهم الموقف ومش هاتنصايق. أنا معرفش مين اللي جاي والله بس أنا مجبر أستأه هنا وأوصله ليك أول ما يوصل «القصر».

• أه ما هي رحلة للقناطر عمال بيعتلمها كل شوية حد بسروح لأمه.

أنا قائل العبارة السابقة وأعتقد أنها توضح جزءاً مما يعتمد في ذهني عليك، ما هذه الألعاب الصبيانية؟ كيف لم أقل لي بأن شخصاً ما سيذهب معي! فكرت لحظتها بأن أعود للقاهرة مرة أخرى وأنسى كل هذا الهراء لكنني هالكت نفسي بسرعة وقلت بهنوء شديد:

- طب إيه تاني انت تعرفه علشان نخلص مرة واحدة.

أطفا سيجارته وقال بجدية وأدب لأنه لاحظ وجهي المتصلب
الملامح:

- مفيش خير إننا هانقابل بكرة (رفاعي).. أخو واحد حاجبي
من القبيلة، أنا بلغته إنك دكتور في التاريخ الحديث وجاي علشان
تكتب كتاب عن الصوفية في الواحات الداخلة والخارجة وفي
«عمرو بن الجن» هو أول مقام هانزوره وتكتب عنه في كتابك،
«رفاعي» عيلته مهمة أوي في القبيلة وهايقدر يساعدك، بس علي
باله لأنه مثقف ويحب يقرأ في مجالات كتير، أوعى تستقل بعقله.
- موقف «رفاعي» إيه من الضريح؟

- لو تقصد مؤمن بيه ولا لا فهو متعادل، شَيْتَاك شوية، بيعترم
القبر لكن مش مؤمن بكرامات ممكن تفيده، ثم هو أساسا ناسي
وجوده، لأنه من الشباب اللي نزلوا عاشوا معانا هنا في القرية لكن
في نفس الوقت كل شهر بيروح القبيلة يقعد هناك أسبوعين ويرجع
للقرية تاني، ويعتبر هو واحد من المستولين عن التموين للقبيلة،
يعني وهو عايش من عندهم ساعات يوصوه يجبلهم حاجات وهو
جاي للمرة اللي بعددها، أكل.. أدوات.. جرايد ومجلات وكتب..

- مجلات وكتب..

- تقدر تقول إن قطاع كبير من ولاد «همارة» اللي هایشين لي

القبيلة لسه بيقرأ كتبي، متنساش إنها تساية كويسة نعد معدوش
لا راديو ولا تلفزيون.

• طلب فيه أي موضوع ثاني ليه علاقة بصياغة «حسين» عليه،
يعني حاجة مفيينها كده ولا كده..

ابتسم «رامي» لكنه مرهان ما عاد للجديفة عندما أحس أنني
لن أقبل بأي تلاعب معي منذ الآن ولن عليه أني يظهرني بكل شيء،
أقسم لي إنه لا شيء يعرفه سوى أن الضيف سيصل بعد غد للقريفة
وأنه سيظهره للقبيلة، أنهى الكلام وتركني لأنام كي أصحو باكراً
لأننا ستعبرك بعد صلاة الفجر مبصرة، كما أعطاني رقم هاتفه
لأطلبه إن احتجت أي شيء الليلة.

ها أنا أجلس على الأريكة أكتب لك تفاصيل اليوم الأول لي
وهذا سيكون ديدني كل يوم، بعد انتهاء اليوم سأكتب كل شيء هام
حدث لي حتى نصل لتلك الليلة، ثم أجمع كل الأوراق وأرسلها لك
مرة واحدة.

لا أعلم ما ينتظرونني يا صديقي لكن ذلبي بولبتك إن حدث لي
شيء.



5 فبراير

اليوم أنا متحمس بشدة، فيعد نوم عميق في عطيفة «رامى»
أيقظني قبل صلاة الفجر لأتوضأ، خرجنا في الظلام نسير وسط
منازل القرية حتى وصلنا للمسجد، دعني أعترف يا «حسين» أنني
ابتعدت عن الصلاة الفرة السابقة، لكن صلاة الفجر في ذلك المسجد
أنعشت روحي» حتى إنني أخذت قزازاً اليوم بالعودة للمداومة
على الصلاة ثانية وأتمنى أن أستمز فيه.

«اللهم هدنا بمنزل «رامى» لتتناول إفطاراً فتزلياً يتلى بالكثير
من الأمتاف التي لا أستطيع «عصرها» «رامى» كان كريماً معي ومع
معندي لأبعد الحدود، بعد اختيار بعض الملابس من حقيقتي وبقية
الأشياء استقلنا سيارة «رامى» وذهبنا لخارج القرية، نحن الآن في
الصحراء، لون أصفر على امتداد بصري أصابني بالصداع بعد دقائق
خاصة مع شروق الشمس، فتج «رامى» راديو السيارة على محطة
بلهاء لا تبث شيئاً جدي، لكنني قُلِمْتُ لما كان يستمع تلك المحطة،
بعد قليل وجدت أن المحطة الإذاعية تتشوش، نظرت لرامى فوجده
مبتسماً وهو يهمني بأننا اقتربنا من المكان، فهمته بعد لحظات
عندما انقطع البث فجأة وظهرت أمامنا ثلاث سيارات من ذوات
الدفع الرباعي متراصين بجانب بعضهم البعض في وضع الوقوف،

الأغرب أن لا وجود لبشر بجانب تلك السيارات، والأغرب أن «رامي» قام بركن السيارة في نفس البقعة، وهو يخبرني بأن السيارة لو نهطت تلك البقعة فستتوقف البطارية عن العمل.

هبطنا من السيارة وجعلنا الحقالب.. لاحظت أن هناك وئداً من الخشب مغروساً في الأرض وحوله جبل معقود ومشدود طرفه إلى ما لا نهاية.

فهمت تلك النقطة عندما سرنا بمحاذاة ذلك الجبل، تلك الطريقة ابتدعها رجال القرية كي يصل إليهم الشبَاب بسهولة عندما يوقفون سياراتهم هنا، وفي نفس الوقت يتتبعون الجبل المشدود من القرية في طريق عودتهم ليصلوا للسيارات.. مجتمع غريب لكنه ذكي، وهذا ما زاد من تحفزي وقدمائي تفحص في الرمال أحاول اللحاق برامي سريع الخطوات.

تحفزي بعد قليل تحول لملل ثم لتعب ثم لرغبة شديدة بالعودة للسيارة.. الرمال تحيط بنا والطريق على ما يبدو طويل جداً والحقالب ثقيلة، كيف يتعاملون العيش في هذه الأماكن؟ هبت فكرة برامي وقررت تنفيذها وقد نسيت ما أخبرني به «رامي» بالأمس، أخرجت هاتفي المحمول لأشغل عليه بعض الأفاني لكن الهاتف لم يعمل.

- إلت نسيت ولأ إيه يا (عصام)، مفيش حاجة فيها كهربيا هاتشغل هنا.

قال «رامي» جماعته وهو يد الخطى وأنا أشعر أنه يتسم بسخرية، أعصابي بدأت في الارتفاع من برودته الشديدة، هل ألتقط حجراً وأهشم به مؤخرة رأسه وأعود للسيارة؟ لو فعلت سأكتشف أنني لا أستطيع القيادة، سأسير ورائه إذن حتى نصل لذلك المكان الغريب.

مرّ الكثير من الوقت أو هكذا خُيِّل لي لأن ساعة يدي توقفت من العمل، وجدت أخيراً بعض الأبنية تظَهَرُ في الأفق، أبنية من طابق واحد بقباب كبيرة، بنيت كلها بالأحجار على حد علمي، رأيت مثلها من قبل في قرية (القرنة الجديدة) أثناء إحدى رحلاتي للصعيد لكن الأبنية التي أراها الآن أشعر بأنها قابلة للتهدم أكثر. وجدت طرف الجبل الذي كنا نسير بجانبه، الطرف ملفوف حول وتد آخر دق في الرمال لن أكذب عليك يا «حسين» لكنني لم أكن أتوقع أن تكون القبيلة بذلك الشكل عندما اقتربت أكثر منها. رجال يرتدون الملابس البندوية وبعضهم يرتدي شجرة على الرأس تشبه تلك التي يرتديها أهل دول الخليج العربي، والمشهد الذي أطار عقلي هو راكبي الأحصنة.

نعم فهناك رجال يعطون أحصنة عربية صغيرة الحجم يتنقلون بها في هدوء تام بين منازل القبيلة، لم يكن العدد كبيراً لكنه يكفي لأكون صورة من أنني لم أذهب لقبيلة تنحدر من أصول عربية فقط. لكنني ذهبت لقبيلة في عالم خيالي فخالف كل ما توقعت من العرب الرحل.

نظر لي الجميع بدهشة وجذر لكنهم ألقوا عليّ السلام وبالطبع
 رَجَبُوا بـ «رامسي» بشكلٍ عنيفٍ كأنهم لم يلتقوه منذ بدء الخليقة،
 في هذا المكان سمعت لهجة تلك القبائل وعرفت أنني لن أفهمها
 كلماتهم سريعة جدًا وتخلط فيها العربية القديمة باللهجة المصرية
 اضطر لأن تطلب من معدلك أن يعيد ما قاله ثانيةً، وصدقني
 بعد معادلة صغيرة مع أحدهم سألني في عينيه تفاد الصبر منك
 لعدم فهمك لهجته وسيقلل حديثه معك بالتدريج حتى يتوقف
 نهائيًا.

دخلنا منزل فسيح يتكون من عدة غرف تتنن بالوسائد
 الملونة المتراصة على الأرض بتناسق، عرفت أنه منزل لاستقبال
 الطيوف والترحيب بهم.. نساء من (مضيقة) منزل «رامسي» لكن
 بشكل أوسع وأكثر رحابة، جلسنا على الأرض بعد وضع الحفائب
 بجانبنا لم نمر دقيقة إلا ودخل رجل في الخمسين بصينية ممتلئة
 بأكواب الشاي وتبعه العديد من الرجال يرحبون بي، لم أفهم أغلب
 كلمات الترحيب لكنني شعرت بطيبة قلوبهم وهم يضحكون بوجهي
 ويقدمون لي الشاي.

تحدثوا في موضوع ما فحاولت متابعتها لكنني فشلت من النقاط
 لهجتهم، فجأة ذكر أحدهم شيئًا فضحكوا جميعًا بما فيهم «رامسي»
 الذي تكلم بطريقةهم بسهولة.

دخل رجل آخر يعمل صينية كبيرة عليها صحن ضخم يصلح
 لاستخدامه كبانيو للاستحمام، ما كان في داخل الصحن لم أفهمه، لكنه

كثير جدًا ويشبه الخبز المقطع وأعله مادة سائلة شفافة، رائحته شهية هي خليط من رائحة المخبوزات ورائحة السمن، جلسنا حوله وأنا أحاول الاعتذار لهم بأنني تناولت الإفطار مع «رامي» لكنهم فضول، بينما «رامي» نفسه طلب مني بصوت خافت أن أكل ي لا يعتبروها إهانة.

مددت يدي مثلهم وأمسكت بقطعة لأجدها ساخنة، قذفتها في فمي فاكشفت سيلًا من الأطعمة والنكهات اللذيذة تغرق فمي، سمن وعسل ونكهة الفحم وطعم يشبه الفطير المشلتت.. لم يحتاجوا لإقناعي أكثر بتكملة الأكل، لأنني اهلت على هذا الشيء بسعادة غامرة.. لا أعرف كيف يحافظون على أوزانهم وسط كل تلك الكمية من السعادة، هذه الأشياء ليست لأصحاب الكروش الضعيفة.

التهينا من الطعام وظهر الشاي الساخن ثانية من مكان ما، بدأت أفكر جديدًا أن أدفن معهم علم، أن أتناول مثل تلك الأشياء يوميًا حتى أموت بالحمية.

قدمني «رامي» لهم على أنني سأكتب كتابًا عن الأفرجة والأولياء وسأدون تفاصيل حياة قبيلتهم باعتبارهم يقيمون بجانب ضريح «همرو بن الجن»، هزوا رؤوسهم بلا اكتراث وعادوا للحديث حول أشياء لم أفهمها.

بعد نصف ساعة أخذوني لمنزل آخر وأجلسوني معهم في ساحة المنزل، دخل علينا رجل في التسعين من عمره عرفنا أنه شيخ القبيلة العالي، يتسند على عصا من الخشب الزخرف ويسير بخط

وهدوء حتى جلس بجانبنا.. اتعبه الجميع له بادب وخشوع، أبهرني هذا الرجل وهو يرحب بي بلهجة قاهرة قوية، فقد درس في شبابه بالأزهر الشريف وعاد بعدها لقبيلته ليستقر فيها معلمًا قبل أن يتحول لكبيرهم.. قلت له:

- أنا مش عارف أشكركم إزاي على كل اللي اتقوا بتعملوه ده،
والله الواحد من كرمكم كان يتمنى يكون أصله من «أولاد عمار».
سمعت الجميع ينطق في نفس الوقت بكلمات أعتقد أنها
للديح، أما شيخ القبيلة فقد ابتسم وهو يصالني عما أبحث عنه.
- أنا عايز أعرف من «ضريح عمرو بن الجن» وتاريخه معاكم،
يعني اللي مدفون في الضريح ده من قبيلتكم ولا قبيلة تالية؟ ومات
سنة كام؟

تكلم شيخ القبيلة بهدوء ورزانة يخبرني عما سمعه من أجداده
وخاصة أن جده الأكبر اشترك في حرب تتعلق بذلك الضريح، ما
أخبرني به زاد من استلتي أكثر مما قدم لي من إجابات.

علمت أن «عمرو بن الجن» لا ينتمي لأي من القبائل العربية،
لكنه أتى -حسب كلمات شيخ القبيلة- مع فارس أسود، تخرجت
من أن أستفسر عن هذا الفارس الأسود، هل لون بشرته أم ملابسه
هي السوداء أم ماذا؟ المهم أن «عمرو» هذا تربى مع الجن حتى
سب وكبر وعاد لهذه البقعة من الصحراء التي سكنتها قبيلة
«ولاد عمار» قبل أن يتولى «علي بك الكبير» مقاليد حكم مصر،
أعتقد أنهم يقصدون قبل عام (1768) ميلاديًا، وعلى ما يبدو أن

«عمرو» هذا علمهم كيف ينتصرون على قوات «أحمد بك» الذي أرسله «علي بك الكبير» ليتخلص من كل عريان مصر، «أحمد بك» هذا الذي تولى فيما بعد ولاية (عكا) وأصبح اسمه «أحمد باشا الجزائر»، والذي أباد الكثير من قبائل العريان لكنه فشل بالمساس ببطون قبائل «الرماح» بسبب «عمرو بن الجن».

كما كان لعمرو كرامات ومعجزات أخرى استعدها مما تعلمها فترة حياته مع الجن، كانت له متعلقات شخصية مسحورة من لمسها استمد سحرها، لم يكن الجالسون يصدقون ما يقال لكنهم يحترمون قائله، حتى حكى شيخ القبيلة عن حكاية قديمة يبدو أنهم لا يعرفونها لأنهم أنصتوا بشغف لما يقوله.

بعد موت «عمرو بن الجن» انفصل «أولاد حمار» عن بقية قبيلة «الرماح» الذين استقروا في (الفيوم)، وفضل «أولاد حمار» حراسة قبر (عمرو) ومتعلقاته الشخصية حتى تتحقق نبوءة أخبرهم هو بها، أن الفارس الأسود سيأتي ثانية في يوم من الأيام ليأخذه لعالم الجن، حتى بعد موته، وأن عليهم حمايته حتى يأتي وقت هودة الفارس.

بعدها تولى «محمد علي باشا» مقاليد الحكم في القاهرة حاول التعامل مع العريان لكنهم رفضوا الانصياع له ولأوامره، فحدثت العديد من المناوشات على مدار سنوات طويلة انتهت بأن أصدر «محمد علي» قانون (امتياز العريان)، يعطي القبائل أراضي خصبة معفاة من الضرائب ومعافاة من التجنيد مدى الحياة مقابل

استقرارهم للزراعة، كما أعطاهم ألقاباً هيدالية منها لقب (الفارس) الذي استمر حتى وقت قريب قبل ثورة 23 يوليو، وكانت «أم خليفة» هي همزة الوصل بين الباشا في القلعة وقبائل «الرماح» بكل بطونهم، وكنوع من التقدير من قبائل «الرماح» تم إهداءها هدية فالية من طرف «أولاد همار»، إحدى متعلقات «عمرو بن الجمن» التي أخذوها من ضريحه، وهي سبائك عليها خدعة من الجبان والعمارة تنح قصرها في الليل.. وقد استعقت «أم خليفة» هذه الهدية بعد كل السنوات التي قضت هي فيها دور العمالي وللدافع عن العريان أمام الباشا.

ولأسف أنت الرياح بما لا تشتهي السفن، فبعد موت محمد علي» وتولي «مبارك حلمي الأول» تم التعامل بشدة غير مبررة مع العريان، حتى جاء محمد سعيد باشا الذي قرر إلغاء قانون (العيال العريان) وإجبارهم على التجنيد وتحصيل الضرائب منهم وإلغاء ألقابهم المدنية، كما ذبح منهم الكثير ليخضعهم لسيطرته، لكن قبيلة «الرماح» تولت أمر مضايقته بعدما تخصصت في الإفارة على ممتلكاته بصعيد مصر، والدخول معه في شكل من أشكال المصارعة الخطافة التي تحدث أكبر تأثير بقواته وتسحب سريعاً للصحرَاء.

من جنون «سعيد باشا» وجرء حملة عسكرية ضخمة مقسمة على ثلاثة فرق أولهم يقودها «حسين باشا أبو صباع» والفرقة الثانية يقودها «إسماعيل باشا» والثالثة يقودها «سعيد باشا»

بنفسه وبجانب تلك الفرق ضم جيش صغير من قبائل «أولاد علي»
التي خضعت له.

أعدت قبيلة «الرماح» خيبتها هي الأخرى وأرسلت في طلب
«أولاد عمار» ليأتوا بعتدهم ومنازلهم وخاصة بأدوات «عمرو بن
الجن» التي يحرسونها.

التقى الجيشان بجنوب الفيوم وكانت الغلبة لجيش «سعيد
باشا»، وبدأ فرسان «الرماح» بالتساقط وارتفعت مرخات نساكهم
بؤخرة الجيش.. حتى قرر شيخ قبيلة «أولاد عمار» بالتدخل، ركب
حصانه وأخذ معه أحد متعلقات «عمرو بن الجن»، ثم التفت
بفرسه حول فرقة «سعيد باشا» وألقى ما معه وسط جيشهم..
صرخ جنود «سعيد باشا» وهم يسقطون من على أحصنتهم
والدماء تخرج من أذان بعضهم، يقال بأن الشيء الذي ألقى وسط
الجنود كان صندوقاً يعمل بداخله آلاف المردة من الجن تسلطوا
على الجيش وشتتوه.

ارتفعت زغاريد نساء «الرماح» وهم يرون فرسان القبيلة
يقضون على من بقي من جيش «سعيد باشا» الذي هرب على
قدميه بعدما سقط من على فرسه وجرى بعيداً حتى وصل القصر
«أم حليمة» ليحمي به.

قررت قبيلة «الرماح» مغادرة الفيوم والاتجاه للصعيد خوفاً
من انتقام الوالي فيما بعد، بينما عاد «أولاد عمار» لمواقعهم الأصلي
بجوار قرية «القصر»، لكن «سعيد باشا» طلب من «أم حليمة»

أن تقنع العربان بالعودة ثانية للتفاوض معه، وأنه سيعيد إليهم
اعتيازاتهم مقابل استقرارهم في الفيوم وبصنادهم عن مهاجمته.

خرجت «أم حليجة» لشيخ قبيلة «الرماح» الأربعين قبل أن
يتعدوا وأقنعتهم بالعودة لقصرها للتفاوض مع الوالي، فلبوا
للتهم فيها، وعاد الفيوم معها إلا شيخ «أولاد عمار» وشيخين
آخرين شكا في نوايا الوالي.. بمجرد دخول شيخ القبيلة قصر «أم
حليجة» أهلقت أبواب القصر وظهر رجال «سعيد باشا» ليزبهم
لم يعلقون جثثهم بالقرب من أرض المعركة، لا يعلم أحد هل
كانت «أم حليجة» تعرف بتلك الحيلة أم إنها خدعت مثلهم، لكن
بعد تلك الواقعة بعام أرسل شيخ قبيلة «أولاد عمار» عشرة فرسان
في جناح الليل ليقبضوا قصر «أم حليجة» ويأخذوا الهدية التي
أهدوها لها قديماً، السبائك المسحورة ليعيدوها للضريح، لم تعرض
هي وتركهم يذهبون مع هديتهم في سلام وبلا عراق.

أمتصني حديث شيخ القبيلة، برغم من كمية الخوارق التي
للف تلك القصة إلا أنها تطلب الأبواب خاصة لو سمعتها في الأجواء
التي تعيط بي الآن.. عند نهاية كلمات الشيخ دخل علينا شاب في
الثلاثينيات من عمره يرتدي ملابس قاهرية، جياها الجميع عودة
وشيوخ القبيلة يعرفني عليه، إنه «رامسي» الذي أخبرني «رامسي»
عنه، قالوا لي إنه سيعاينني الأيام القادمة للكتابة عن الضريح،
وسيتولى هو مسئولية تنقلاتي في القبيلة الليلة وخارجها هذا.

فأدرك «رامسي» القبيلة مودعًا إياي بعدما عرفني على «رفاعي»
كثير، وعُدْتُ أنا مع هذا الأخير لمنزل الضيافة بالقبيلة، عرفني
بمكان الحَمَام واللبيت وأخبرني أنه سيأخذني غدًا بعد الغروب إلى
موقع قريب من الضريح.

شخصيته على النقيض من «رامسي» فهو شابٌ هادئٌ لا يتحدث
كثيرًا، قليل الابتسام والمجاملة، لكنه مؤدب، لهجته القاهرية
تجعلني أميل إلى أنه درس في القاهرة لفترة لا بأس بها من حياته،
وهذا ما لم أسأل عليه لأنني شعرت أنه لا يرغب بتبادل الكثير من
الأحاديث معي.

هذا أهم ما حدث اليوم إلا إذا أردت أن أكتب لك ماذا أظعموني
على الغداء والعشاء وكم مرة دخلت فيها الحَمَام لأحضرم طعامهم
النسم.. إلى اللقاء في الغد يا صديقي.

6 فبراير

اليوم استيقظت باكراً عند الشروق، صليت الصبح وأنا أتذكر
أن الأمس مر عليّ بدون صلاة إلا الفجر، يجب أن أتذكر مواعيد
الصلاة بشكل أفضل من هذا.

جاءني الرجال في منزل الضيافة بصحبة «رفاعي» ومعهم
أصناف مختلفة للإفطار، تناولنا الطعام وحسبنا بأكواب الشاي ثم
حاولت أن أجرحهم للحديث حول ضريح «عمرو بن الجن».. كانوا

يفلتون من الحديث في كل مرة أفتعه فيها، بشكل عام أعطاني هذا انطباقاً أن رجال القرية إما خير ملتزمين بكرامات «عصرو بن الجن» هذا وإما أنهم يخافون الحديث عنه، أو ربما هو الاثنان مختلطان ببعضهما.. بعض الأحيان أخير الناس أنني لا أفتح بالجهان والعاريت وفي نفس الوقت أشعر بالقلق عند الحديث عنهم، ولا أكذب إن قلت أنني ما زلت أتفيل أن هناك شيئاً ينتظري في كل مكان مظلم، هذا الخليط يُضيقني إلى حد كبير الملحد الذي ينكر وجود الله وفي نفس الوقت لا يترك مناسبة إلا وحاول إقناع من حوله بأن الله ظالم للبشر، يتكلم عن الله بكثرة تجعلك تفكر هل فعلاً ينكر وجوده أم هو واقع في هذا الخلط، إنكار الشيء والخوف منه بنفس الوقت.

أخذني «رفاعي» للتمشية داخل القبيلة قليلاً حتى قلت له ولعن نصر:

- متعرفش إيه ممكن يكون السبب إن المكان هنا مفيش كهربا بتشتغل فيه؟

- ممكن يكون غضب من ربك..

قالها بالقتصاب وسرعة وهو يفرج حلبة سجال، أعطاني سيجارة فالتقطتها مدهولاً حاول أن يفعلها لي بقداحته فرفضت وأفهمته أنني تركت التدخين لكن سأحفظ بطاك السيجارة ولا أشعلها، أشعري ملمسها بالراحة وهي بين أصابعي ترقد في سلام.

- أنت شغال إيه يا «رفاعي»؟

- هندي معلات بقالة في «القصر».

- واتخرجت من كلية إيه؟

- درست في الأزهر زي كل جدودي، جدي يبقى شيخ القبيلة

اللي كنت قاعد معاه إمبراح.

- هو انت هالسك القبيلة من بعده بعد عمر طويل إن شاء

الله؟

- الله أعلم.. حتى لو مسكتها هاعمل إيه؟

- انتوا ليه ما اندمجتوش مع القرى اللي في الواحات؟

- إسأل فريخ «عمرو بن الجن»، هو اللي مكلبش أصول

هوايلنا.

- انت مصدق في الفريخ ؟؟

- ممكن مكنش متأكد من الفريخ، لكن متأكد إنك مش جاي

هلفان بتكتب كتاب عن الأفرجة، توقيت زيارتك بيقول إنك

هارف أكثر ما بتقول

- تقصد إيه؟

- انت عنده فضول تحضر الليلة اللي بهحصل كل عشر سنين

وأنا هندي فضول أعرف انت هاتعمل إيه.

«رفاعي» هذا خالف توقعاتي منه، لم أتخيل أنه يقرأ ما يستقر

بنفسه بهذه الطريقة، بل وما زال بارداً كأن شيئاً لم يكن، قلت له

بغيت:

- انت عمرك حضرت الليلة دي، ليلة ما القبر بيتفتح؟
- وأنا صغير بس، شفتها من بعيد وخوفت أكمل فهربت
- شفت إيه؟

- صدق أو متصدقش، «عمرو بن الجن» حقيقي، لكن مش زي
ما قبلتنا فأكراه، ممكن يكون فعلاً اتربى مع الجن، ويمكن هو
نفسه جنى، مش عارف، لكن اللي شفته ملوش معنى غير إننا
أسرى لسر مش عارفينه حتى.

- طب والأدوات اللي سابها؟ موجودة؟

- جدنا الكبير دفنوها في القبر علشان متقعرش في إيد حد، العمامة
بتاعته اللي لو لبستها تشوف عالم الجن، وعصايته اللي بتفلق
الحجر وعصايته اللي بتخفي اللي يلبسها
خطر لي فكرة كوميدية عن تلك العباءة، كدت أن أقول له
إنه يتكلم عن (هاري بوتر) بنسخة عربية لكن تراجعني كي لا
أكسب حلقه.

- الكلام اللي بتقوله يشبه التراث الصوفي، مش ممكن (عمرو)
ده راجل جه من بلد بعيدة وماش بينكم ومات بطريقة هادية؟
- ممكن.. بس للأسف تاريخياً «أم حليجة» حقيقية والمعرفة بين
«الرماح» و(سعيد باشا) اللي حكاه لك جدي بتفاصيلها مكتوبة في
كتب التاريخ. يعني فيه سر بس إيه هو الله أعلم.

هنا صامعين لمنزل الضيافة وتركني هو لتفكيري، قبل دخولي
القبيلة كنت متعادلاً فيما ساراه، أما الآن فبدأت أشعر بهيبة ما
حول الضريح، أخاف أن يخذلني عقلي ويصور لي تخيلات ليست
من الواقع.

تذكرت الكاميرا الفوتوغرافية فأخرجتها من الحقيبة لأجربها،
أوصلت كابل الفلاش الضخم ووضعت المصباح الصغير به، جلست
أتأمل ذلك الغلاف الذي صنعه ابن خالتك للفلاش، وفكرت في نوع
المادة التي استخدمها لتغليف أسلاك الفلاش وموضع البطارية.

حركت ذراع الكاميرا ووجهتها ناحية أحد أركان المنزل وضغطت
على زر التصوير في نفس لحظة ضغطي زر الفلاش، قفزت فرحاً
عندما انفجر المصباح وانفجر الضوء لثانية، طريقة تصوير مخيفة
لو كانت تلك هي الشائعة في بداية القرن السابق، لقد تناثرت
أجزاء المصباح المنفجر على الأرض، فككت بقايا المصباح القديم
وركبت واحداً جديداً لكن لم أغير البطارية، حاولت إشعال المصباح
ثانية لكن لم يحدث شيء!!

قبل كل شيء نجح ابن خالتك في تشغيل أول كهرباء في هذا
المكان، وفي نفس الوقت لا أفهم كيف عملت البطارية في المرة
الأولى وفشلت المرة الثانية.. غيرت البطارية بواحدة جديدة فانفجر
المصباح بنجاح.

كيف فكرت في تلك الفكرة المريبة وكيف علمت أنها ستنجح

على كل لن أستعجم الفلاس إلا ليلًا لذلك لن أرقى بالي بأية عمله
فربما علمت فيما بعد.

هزّ اليوم مريقًا وخاصةً بعد الغداء والذي لم يتعمله قولوني
المسكين، حمدًا لله أنني أتيت بأدويتي، والتي لم تفعل لي الكثير،
لكن «رفاعي» أحضر لي كوبًا ضخمًا من اللبن الرايب ونصحتني
بشربه، فعلاً اختلفت مشاكل معدتي بعد قليل، أهو تأثير نفسي؟
أم إن اللبن الرايب فوائد حقيقية؟ لا أعلم، الذي أعلمه لن الحياة في
هذا المكان تجبرك على راحة البال، ويعز عليّ تركه اليوم للذهاب
للضريح.

قبل غروب الشمس أعددت حقائبي حتى أنني «رفاعي» يحمل
هو الآخر حقيبة كبيرة يبدو أنها ممتلئة على آخرها، تعزكنا خارج
القبيلة ناحية الشرق مشيًا على الأقدام.. سألته لماذا لا نستقل
الأحصنة حتى ولو حملت هي الأمعة هنا فقط.

- مفيش حيوانات برضى تقرب من الضريح، بيتجننوا ويهيجوا
ويهربوا، مش هالتقدر نسيطر على النحسان لو أخذناه معانا.
كلامه أفلقني هذه المرة، لم أر الحيوان وهو يرفض اللاتراب من
الضريح لكن كلماته الواثقة قطعت الشك باليقين في هذا الموضوع،
كأنني شاهدت الحدث بأم عيني.

سرنا مسافة طويلة حدها هو بنصف ساعة من خلال ساحة
يده التي اكتشفت أنها من النوع الذي يتم ملأه يدويًا كل اثنتي

عشرة ساعة لذلك لا تحتاج لأي نوع من البطارية.. هؤلاء القوم
يعودوا على الابتعاد عن الكهرباء بحق.

ظهرت قبة على مرمى البصر كأنها نحتت من الصخر، لم أتبين
معالمها جيدًا لأن الظلام بدأ يهبط على المكان و(رفاعي) يأمرني
بالتوقف ليصبح هذا هو موضعنا.

ألقيت بعقاببي وجلست فوقها وأنا أراقب «رفاعي» يفتح
حقيبته ويخرج منها بضعة أسياخ معدنية لحمها ببعضها البعض
فأصبحت أطول مما كانت عليه، ثم أخرج خيمة حديثة مطوية
كالتي أراها في الأفلام الأجنبية عندما يقيمون في انتظار الوحش
الذي سيأكلهم عند نهاية الفيلم.. فرس الأسياخ الحديدية في الأرض
ووضع عليها الخيمة باحترافية من مارس هذا العمل آلاف المرات.
كما أخرج من الحقيبة بطانية فرشها على أرض الخيمة وأخرى
لتنطى بها.. لم تنتهِ حقيبته من المفاجآت، فهناك مصباحا كبروسين
أشعل أحدهما بقداحة لتنع لنا في الظلام وعدة أدوات لإعداد
الشاي وبضعة علب تتلى بالطعام.

- مش هروح نشوف الضريح بقى؟

قلت تلك الكلمات بهلل بعدما انتهى هو من إعداد كل شيء.
لكنه قال بدون أن ينظر لي:

- إلت في حمايتي، مفيش زيارات للضريح بالليل، الصباح رياح
نروح وتقلب فيه براحتك

- ليه بص، هو انت من عندك فضول تفوف إيه اللي يحصل هناك؟

- أنا أفتلك هندي فضول أشوفك انت هاتعمل إيه، على العموم من بالليل للصبح من كتير، اتعد اشرب الشاي دلوقت.

كان قد بدأ في إعداد الشاي بينما أنا أخرج التلسكوب من الحقيبة وأثبتته على العامل الخاص به، للأسف كل ما أعرفه عن هذا الشيء هو أساسيات علمتها أنت لي يا «حسين» كوكبيه واستخدام بعض عدسات التقريب، هل أعطيتني إياه لأستطيع تقريب صورة المريخ وأنا أراقبه من بعيد؟

لا أعرف ما هو غرضك لكني على الأقل استخدمت التلسكوب لهذا الغرض، وجهت التلسكوب ناحية المريخ، بالفعل أرى صورة طرية جدًا له لكنها صورة مظلمة.

- أنت بتعمل إيه؟ التلسكوب ملشان تفوف بيه النجوم.

قال «رقاصي» جملة وهو يصب الشاي ويأتي ليقلب جهتي ليظهرني التلسكوب الساخن لم يزعجني برطق ليقلب هو خلف التلسكوب ويرفعه لأعلى قليلًا قائلاً:

- النجوم والكواكب في الصحراء بتبقى أوضح لأن مايش أي أشواء قريبة تأثر على الرؤية.

- إنت بتعرف تستخدمه؟

- على خلاف، لعلني بص.

تركني لأنظر بعيني للقمر المتمثل في شكل بدر وحوله ضوء
أزرق باهت يبدو لي أنه من أثر التلسكوب، أول مرة أرى القمر
بهذا الوضوح والدقة، نسيت كل شيء من الضريح وأنا أتبادل على
التلسكوب مع «رفاعي» لنقل عدسته في أماكن عشوائية في السماء
نحاول تبين النجوم وأماكنها.

شربنا الكثير من أكواب الشاي وتناولنا العشاء ونحن مازلنا
نراقب السماء بشغف ولا حديث لنا إلا عن النجوم والكواكب، بعد
بضع ساعات أخبرني «رفاعي» بأنه سينام قليلاً داخل الخيمة.
- إلا عادي ننام كده في الصحراء.. مش ممكن عقرب يلدعنا.

قلت ذلك وأنا أغلق عدسة التلسكوب وأعيده للحقيبة فردّ
عليّ وهو يدخل للخيمة:

- متخافش، لا تعبان ولا عقرب ولا سحلية بيقرّبوا من المنطقة
دي، انت هالناس في أمان أكثر من بيتكم نفسه.

دخل لينام بينما جلست أنا في خارج الخيمة بعدما أحضرت
الأوراق لأكتب لك عما حدث اليوم، لكنني لن أترك هذه الليلة
لنعمر مرور الكرام، سأنتظر حتى يذهب «رفاعي» في النوم وأحمل
مصباح الكيروسين والكاميرا لأفقد الضريح بنفسني، طالما لا وجود
للحشرات والصابين فلن يغيفني شيء، سأتوقف عن الكتابة الآن
وأعود لأكمل لك ما رأيته.

اعذرني يا «حسين» وأنا أكتب تلك الكلمات، لقد عدت منذ قليل للخيمة وأنا أحاول من وقتها السيطرة على أعصابي، ستجد خطي مرتعشاً لكنني سأحاول تنظيم أفكاري لتفهمني.

أخذت مصباح الكيروسين والكاميرا وسرت بهماسة شديدة ناحية القبة التي تظهر لي من بعيد، لم تكن بذلك البعد كما تخيلت فهناك قبة رملية بمجرد أن تخطيها وجدت نفسي أمام الضريح.

لا ليس ضريحاً كالأضرحة التي أعرفها، فهو كالمنزل في ارتفاعه تعلوه تلك القبة، كأنه منعوت من الصخر، لكن ربما كان مبنياً في الأصل من الأحجار وعليه طبقة من الطين هي ما أعطته هذا الشكل الصخري، له أربع فتحات كالأبواب في جوانبه الأربعة، وبجوار الضريح بضعة جذوع نخيل يابسة ملقاة بإهمال وتكومات رملية تعيق بكل جوانب الضريح.

وضعت المصباح أرضاً وأعددت الكاميرا لأول التقاطات، فجرت الفلاش وضغط زر التصوير فلم ينفجر المصباح!! خيرت البطارية ومصباح الفلاش لكن فشلت ثانية، أعدت الكرة مرات عديدة لكن لا استجابة من الفلاش، استخدمت الكاميرا بدون الفلاش معتمداً على ضوء القمر التقط بضعة صور متمنياً أن يظهر منها أي شيء وأنا أقرب أكثر مع كل مرة التقط صورة جديدة.

التربت حتى حدث شيء غريب.. من داخل الضريح ظهر ضوء أبيض للعظلة واختفى، استعدت بالله من الشيطان الرجيم، عاد الضوء ثانية واختفى، جاء تنبي لي لحظة جراءة فالتربت من الضريح

أكثر حتى لم يبق بيبي وبينه إلا بضعة أمتار، عندها عاد الضوء
لكن لفترة أطول، ومعه صوت أنين طويل، اهتزت الأرض تحت
قدمي لوهلة وانطفأ الضوء واختفى معه صوت الأنين.

أطلقت ساقى للريح وأنا أحمل مصباح الكيروسين الذي خبئت
ناره أثناء هروبي عائدًا للخيمة، استقبلني «رقاعي» وألقا أمام
الخيمة وهو يحمل المصباح الآخر مشتعلًا.

- خُفت إليه؟

قالها متحيرًا وأنا أجلس بجانب الخيمة ألتقط أنفاسي وأنا
أنظر له فقال هو:

- أنا دخلت أمام حلمان عارف أنك هاتروح لوحده، قوني
خُفت إليه؟

هل أخبره؟ ماذا أخبره؟ لم أفهم شيئًا مما رأيته، هل تخليت
ما حدث؟

- ما خُفتش أي حاجة

ظهرت علامات الشك على وجهه وهو ينظر لي وأنا أمسح
حيات العرق التي تكونت على جبينتي، لم يطل النظر لي لأنه تراءى
لمصباح أمام الخيمة ودخلها لينام بهدوء.

ما حدث يفوق قدرتي على التصديق، يجب أن يشاهد أحد ما
معني هذا الشيء ليؤكد أو ينفي أنني كنت أتخيل، قلبي يصدق
وعقلي يرفض، أتمنى أن أكون مخطئًا.



7 فبراير

كنت بالأمس بشكلٍ عتيق، أصدقني؟؟ دخلت الخيمة بعدما
أنهيت الكتابة وتخلّلت أنني سأظل طوال الليل أفكر بعمق فيما
حدث لكن فجأة شعرت بيد «رامسي» توقظني وضوء النهار يدخل
من خصاص الخيمة، تناوئنا الإططار بدون أن تتبادل أي كلمات
وهو يفرّج بوجهه عني ويتعامل معي ببرود، أنهينا الطعام وشرينا
الشاي.. لكنني وجدته ينهض قائلًا:

- أنا هارجع على القبيلة هلشان الحق.

- نعم.؟؟ ترجع إيه وتلحق إيه؟

- هو «رامسي» مش قالك على الضيف الثاني الي هأجيبه من
مصر النهارده هلشان يكون معاك؟ «رامسي» هأوصله على القبيلة
وأنا هاستلمه من هناك وأجيبه عند.

- طب آهي معاك بقى طلالا راجع.

- هو انت مش قلت إنك ما أفلحش حاجة في الفريج؟ خايف

من إيه؟

شعرت بالإهانة وأنا أنظر بطرف عيني لقبة الضريح الظاهرة
في الأفق وقلت:

- أنا مش خايف، بس برضو أنا معرفش حاجة في الصحرا علشان
تسييني كده في الطل.

- متقلقش، دي سكة نص ساعة رايح ونص ساعة جاي، هاستقبله
وأجيبه على هنا على طول، كمان مش هانقعد نشيل الحاجات دي
كلها ونروح ونرجع بيها مشي.

لو أسمع في طلبي سأشعر بالإهانة أكثر لذلك صعدت محاولاً
السيطرة على خوفي و «رفاعي» يرتدي حذاءه قائلاً:

- أنا هاسييلك كل حاجة هنا، إوعى تفكر تسيب المكان أو
ترجع القبيلة لوحده، هاتكوه وممكن منعرفش نوصلك

هرزت رأسي ولساني يكاد يغولني ليصرخ به أن يصطحبني معه،
لكنه ألقى السلام علي وفادراً ببساطة، خرجت خارج الخيمة أنظر
له وهو يسير مبتعداً حتى اختفى من مرمى بصري.

سأنوِّف الآن عن الكتابة لأريح أعصابي وأعود لأكمل فيما بعد

فعلت كل شيء ممكن حتى إنني أكلت مرة ثانية بدون رغبة
حقيقية وشربت الكثير من أكواب الشاي حتى بدأت معدتي
بالتقلص، كل هذا وأنا أنظر إلى قبة الضريح مفكراً فيما سيحدث لو
زرتها الآن في ضوء الشمس، لم أفد الفكرة بعد لكنني بدأت أشعر

يا ليل الشدید، خمس الظهيرة بدأت في الابتعاد ولم يعد «رفاعي»
بعد مع الضیف، بالتأکید لن یتروکونی وحیدًا.. ربما استقبل الضیف،
وهو الآن يقدم له أطایب الطعام احتفاءً به.. علیکم اللعنة جميعًا
تأکلون وتترکونی هنا وحیدًا.. لو كنت أمامي الآن يا «حسين»
لأخرجت لسانك من حلقك وخنقتك به.

لم یأتوا بعد، الوقت يمر بیطء، لذلك فقد ارتکبت مصیبة علی
سبیل الانتقام من الجميع، بحثت عن السیجارة التي أعطانی إياها
«رفاعي» أمس، لیتنی وجدتها فقط وانتهى الأمر، لم أجدها بل
وجدت علبة سجائر كاملة فی حقيبة «رفاعي» وبجانبتها قداحة
أشعرتني بالأمان.

دخنت سيجارة، لا تلمني فأنتم جميعًا السبب.. فی الحقيقة لم
تكن سيجارة وحيدة، بدأت بسیجارة شربتها بحزن وانتهت بعشرة
سجائر دخنتهم مع أكواب الشاي وأنا ألعب فی أصابع قدمي أمام
الخيمة وأنظر لقبة الفریح.

أعطتني السجائر طاقةً جنوئیةً جعلتني أنهض والسیجارة
المشتعلة تتدلى من طرف فمي علامة الاستهتار كي أکیب نفسي
ثقة أكبر.. عبرت التبة الرملية ووقفت أمام الفریح، ماذا سيعحدث
إن دخلته؟ لا شيء..

اقتربت من فتحة الباب ودخلت الفریح.. لا شيء داخله، مجرد

مساحة خالية تمتلئ بالرمال !! أين الضريح؟؟ هل هذا مقلب أم
ماذا؟ إذا كيف رأيت الأضواء أمس؟ والصوت الذي سمعته؟
عدت ثانية للخيمة وجلست أمامها بعدما أطفأت السيجارة
فلم تعد لي شهية لها.. سأنام الآن مزراح البال حتى يعودوا، يبدو
أنني خدمت.



أينظني «رفاعي» من النوم ليلاً ليعرفني على الضيف الآتي من
القاهرة، ما هذا يا «حسين»؟ الضيف ما هو إلا «محمد طه» ابن
خالتك الذي قام بالتعديلات على الكاميرا، ولأننا نعرف بعضنا جيدًا
فلقد الدهش «رفاعي» من ذلك.

لماذا لم تقل أنك ستوصله؟ ولم تأخر عني كل هذا؟ علي كل حال كل
تلك الأسئلة سألتها له بشكل مباشر فأخبرني أنه تأخر بسبب بعض
التعديلات التي كان يقوم بها على أجهزته، أنا أعرف أنه مهندس
كهرباء لكن لم أفهم في البداية ما هي علاقته بضريح «عمرو بن
الجن»، لكنني ربطت بعد تفكيري بثانية أن الكهرباء لا تعمل في هذه
المنطقة، هل أرسلته ليصلحها؟؟ لا أعتقد أنه سيتعامل معها على
أنها مصباح معطوب نحضر له سلمًا خشبيًا ليصعد ويصلحه، كيف
سيصلح كهرباء في قبيلة كاملة.

جلسا يشربان الشاي وأنا بهما أنظر إلى الدبة بشرود حتى
قال (رفاعي):

- إنه دخلت الضريح قبل ما أجي ولا خفت؟

- دخلت.. وملتفتش حاجة، الحكاية كلها الظاهر كانت مقلب

ييجر والتوا شربتوه طول الستين اللي فاتت.

نطق «محمد» فجأة بالتصارف قائلا:

- أنا كنت جاي هنا ومتأكد إن لا فيه همسرو ولا فيه جن، ابن

خالتي كان يستهبل في النقطة دي.

- وهو فيه نقطة ما استهبلش فيها؟

هز رأسه وجرى ناحية حقيبة كبيرة تركها بجانب القيمة،

الجميع يحضرون العقائب الضخمة لهذا الضريح وكل شيء هذا كان

بلا جدوى.

فتح «محمد» الحقيبة وأخرج منها صندوقا رمادي اللون وعلى

جانبه ثلاث بكرات ملتصقات به، وبدأ في الحديث، وبدأت أنا

بالذهول.

قال إنه توصل لفرضية بسبب عدم عمل الكهرياء في المكان.

وبسبب هذه الفرضية قام بتغليف بعض أجزاء الكاميرا الفوتوغرافية

التي أحملها بالرصاص، الفرضية كانت أن الكهرياء لا تعمل هنا

بسبب وجود مجال كهرومغناطيسي عالٍ يؤثر على أي بطاريات أو

أسلاك كهربية، لذلك إذا أحاط أي جهاز كهربي بخلاف من معدن

الرصاص فسيمنع ذلك المجال الكهرومغناطيسي من التأثير على

الأجهزة.

أما في حالة الكاميرا فلم يمكنه أن يحيطها بالكامل بالرصاص،
فاضطرَّ لإحاطة موضع البطارية والأسلاك التي تربطها بالفلاش
بالرصاص، كي يمنع أي تدخل على البطارية، وبسبب أن مصباح
الفلاش ينفجر كل مرة فذلك يظهر قطاع من الأسلاك يتأثر بالمجال
الكهرومغناطيسي فيؤثر على البطارية الضعيفة ويحرقها، لذلك
يجب تغييرها كل مرة لتعطي قذحة واحدة قبل أن تتأثر بالمجال،
عندما سأله لماذا فشلت في تفجير مصباح الفلاش وأنا قريب
من الضريح اندهش وجلس متحيرًا وهو يقول:

- الرصاص الذي يحاط البطارية والأسلاك لو قرب من مجال
قوي هاتأثر لأنني مكنتش مقفل الكاميرا كويس، وده معناه حاجة
واحدة.. إن الضريح هو مصدر المجال الكهرومغناطيسي.

قال عبارته ونظر للصندوق الذي أخذه من حقيبته وهو يقول:

- إيه الشيء اللي في الضريح ويخرج كل كمية للمجال الكهرومغناطيسي
ده اللي يآثر على مساحة بالكيلومتر.

- إيه الصندوق ده؟

- ده صندوق رصاص جواه راديو، وأنا موصل بكرات الراديو
بتروس علشان أدور البكرة اللي برا الصندوق فتدور البكرة بتاع
الراديو، وفيه فتحات دقيقة متوزعة على الصندوق ومنطقة
بالذهب علشان تخرج صوت الراديو.

قال «رفاعي» بلهفة:

- يعني انت ممكن تشغل الراديو ده دلوقت؟

لم يرد «محمد» وإنما أدار البكرات الجالبية للصندوق فسمعنا تشويشًا، نهض «رفاعي» مذهولًا والتأثر باديًا على وجهه، بينما يعرك «محمد» البكرة حتى حصلنا على صوت واضح، صوت دقات سريعة منتظمة بإيقاعات محددة تتكرر بانتظام كأنها تعني شيء - كأنها رسالة مسجلة..

ظهر ضوء أبيض من قبة الضريح واختفى..

- انتوا شفتوا اللي أنا شفته؟

قلت عبارتي بتردد وهما يهزان رأسيهما بالإيجاب والقلق يقفز من ملامح كل منهما على حدة، أما أنا فارتحت قليلًا على الأقل لأنني تأكدت أنني لم أكن أهذي.

عاد الضوء بسرعة خاطفة فنهضنا جميعًا فنظر باتجاه القبة، وصوت الدقات المنتظمة الآن من الراديو يصنع خلفية مهيبة للمشهد. جرى (محمد) وحمل حافظة جلدية صغيرة من حقيبته وهو يقول:

- إحنا لازم نتأكد بنس..

لم يكمل عبارته لأن صوت أين عالي لي من الضريح مع إضاءة قوية واهتزاز أرضي أوقفنا أرضًا.

ما الذي يحدث؟ اعتقد يا «حسن» أنك ترجمت الموعد الذي يأتي كل عشر سنوات بالخطأ، ليس في يوم 6 فبراير، وإنما في ليلة

هذا اليوم، لي التي تسبقها ليلة، الأحداث الغريبة تتم الآن مع
الضريح.

الأرض تهتز أكثر والضوء يعلو والألبن يتصاعد، بصعوبة خط
«محمد» ناحية العبة الرملية ومبرها ولحن ورامه لعاول ملته، وقع
أرقًا جرأ تلك الهزات، ساعداته على النهوض.

فجأة توقف كل شيء، كأن وحشًا ما حاول يستيقظ من سباته
العميق لكن النوم غلبه فجأة.

وقف «محمد» ينظر لأرض بجانب الضريح، كان يتأملها بتركيز
وهو يقترب منها حتى توقف عند كتلة ترابية وألقى عندها حقيقته
الجلدية وأخذ يحفر بيده أكوام الرمال، لم يحفر كثيرًا حتى ظهر
شيء لامع، جريت مع «رفاعي» لتأكد من مما نراه إنه ذهب،
أخذنا نحفر مثل «محمد» حتى ظهرت ماسورة يقطر ضخمة للغاية
كلها من الذهب الخالص، جرى «محمد» يحفر في أماكن مغطاة
ويزيح الرمال عن بقية الماسورة لنجد بعد دقائق من الحفر أن
لماسورة الذهبية تشكل متوازي أضلاع ضخمة على مسافة ثلاثين
متراً أكملنا حفر في أماكن أخرى لنجد متوازي أضلاع آخر يلتحم
مع المتوازي الأول على أرضية من الفضة.

وقف «محمد» لاهثًا متسع العينين رعبًا وهو يقول:

- دي «ألتينا»، هواي لاسكي بيستقبل الإشارات ويبعتها.

- والذهب لازمته إيه؟ والفضة إيه؟

- ملشان الذهب أقوى موصل للكهرباء، والفضة شغالة عاكس
علشان يقدر يبعث إشارات لأماكن بعيدة، مين اللي عمل حاجة
بالضخامة دي؟

- وعمله ليه؟

فجأة تشقق الضريح والفصل القطعتين ابتعدا عن بعضهما ببطء
والضوء الأبيض يخرج من الأرض، انفتحت الأرض أسفل الضريح
لتظهر فتحة تشبه البئر. اهتزت الأرض ثانية و «محمد» يخرج من
الحقيبة الجلدية الملقاة أبواب صغير عرفت فيما بعد أنه أبواب
«جايجر» لقياس الإشعاعات النووية، ولا يحتاج لكهرباء بل يمكن
تسخينه بالنار ليبدأ في إصدار الأصوات عند مرور إشعاعات نووية
من خلاله، وهذا ما فعله «محمد» عندما أخرج قداحة من جيبه
وأشعلها في طرف الأبواب لتسمع جميعا الصوت المميز لعداد
«جايجر» معلنا أننا نقف في مكان يمتلئ بالتفريغ النووي.

هبط «محمد» من فتحة البئر و «رفاعي» يتبعه وأنا أحاول
التشجيع لأنزل لأسفل، لم يكن الأسفل بعيدا بل هو مسافة مترين،
وجدنا أنفسنا في آخر مكان كان يمكن أن نخفيه في يوم ما.

حاول التماسك يا «حسن» وأنا أروي لك هذا الجزء، وصدقني
أنني لا أصدق نفسي.

نحن نقف في غرفة مضاءة باللون الأبيض، ممتلئة بأجهزة غريبة
تحيط بنا من كل النواحي والأتربة تلهأ، ما يمكن تمييزه منها هو
ثلاث شاشات مسطحة تشبه شاشات التلفزيون لكن صغيرة الحجم،

هناك أوراق ملقاة على الأرض، أمسكت إحدى الأوراق لأجدها
تمتلئ بكتابات غريبة مطبوعة والحبر ممسوح في أكثر من سطر،
كانها مجموعة رسائل تمت طباعتها، ليس هذا كل شيء.

ففي نهاية الغرفة وجدنا طاولة يرقد عليها رجل غريب
الوجه، يُشبهُ البشر بشكل كبير في تكوين الجسد والوجه عدا أن
عيديه كبيرة وحاجبيه يبرزان للخارج، الأغرب من هذا أنه كان
مغمض العينين كأنه نائم على ظهره لكن هناك طبقة شمعية
شفافة تغطي جسده بالكامل.

أخبرني «محمد» بأن أنبوب «جايجر» يخبرنا بأننا نقف على
مصدر عالٍ لإنتاج الكهرباء، إنه اندماج نووي يكفي لإنتاج طاقة
كهرومغناطيسية لتؤثر على كل الأجهزة الكهربائية في محيط أكثر
من اثني عشر كيلو متر.

نظرنا لجسد الرجل ثم نظرنا لبعضنا البعض خائفين أن نعرف
بما نراه الآن، هل هذا هو «عمرو بن الجن»؟ كائن فضائي في حالة
مبات؟ وضريحه ما هو إلا كاموفلاج لشيء يُشبه السفينة الفضائية!!
هل الإشارة التي استقبلناها على الراديو منذ قليل كانت تُرسلها
تلك السفينة لخارج الفضاء كنوع من الاستغاثة منذ مئات السنين
لذلك احتاجت لكل تلك الطاقة الكهرومغناطيسية التي أُثرت على
المنطقة المحيطة بها؟

بجانب الجثة هناك خوذة بيضاء مربعة الشكل وعصا طويلة

ورداء يشبه رداء رواد الفضاء، هل الخوذة هي العمامة ورداء الفضاء هو جلباب الولي؟ وسلاحه هي العصا السحرية؟

كان (محمد) يقف عند إحدى الشاشات ينظر لها بخوف، مد يده ليزيح الأتربة من على الشاشة ليجد عليها صورة بتصميم ثلاثي الأبعاد لشيء يشبه قم الإبريق يدور حول نفسه ويضيء بألوان متعددة، قال «محمد» من وسط ذهول:

- أنا عندي ليكم خبر وحش، فكمي فهمت إليه اللي حصل، طول السنين اللي فاتت المرغبة دي كانت بتحاول تبعت إشارة لبرا الأرض، لعاجلة بتدور حوالين الغلاف الجوي للأرض، قمر صناعي محدش عارف مين أطلقه من 13 ألف سنة، اسمه (black knight) (الفارس الأسود) بيدور حوالين الأرض ويبعث إشارات ليها بشكل منتظم، لكن واضح أننا لما شيلنا الرمل من على الأنتينا قدر (الفارس الأسود) يتواصل مع السفينة دي، وقدرت السفينة تبعتله رسالة استغاثة

ألم يقل شيخ القبيلة أن من أخضره هو فارس أسود وهو من سيعود ليأخذه ثانية؟؟

كما قلت لك صدق أو لا تصدق أنا الآن أكتب لك وأنا بجانب محمد و «رفاعي» المذهولين نجلس على تلك التبة الرملية و «رفاعي» يعد التلسكوب وينظر للسماء لحظة واحدة أنظر في عدسة التلسكوب وأعود لك.

لقد عدت، هناك جسم طائر رأيناه في التلسكوب يقف كالطائرة
على ارتفاع شاهق عمودياً على فريخ «عمرو بن الجن».. ما الذي
سيحدث؟ لا أعلم.. لكنني سأظل مع «محمد» و «رفاعي» إلى أن
نقوم ولو القليل.

أتركك الآن لأكمل معهم مراقبة ذلك الجسم الذي نشك بأنه
«الفارس الأسود»..

مع السلامة يا صديقي

صديقك

عصام مندور

الواحات

7 فبراير / 2024

تمت

شكر خاص

إلى المهندس / محمد طه الذي ضحى بالكثير من أجل ما
يؤمن به، أتمنى أن تصل مبتغاك.

إلى الصديق العزيز / أ / هيثم حسن مدير (دارك) للنشر
والتوزيع، أشكرك على كل ما تحملته من أجل إخراج هذا
العمل.



الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

ضريح عمرو بن الجحج

إلى من دفن في هذا الضريح.. لكم أتمنى أن تكون مجرد خيال..

حسن الحدي



دارك
للطباعة والنشر